الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سهام مُرضي

خلف العالم

رواية

خلف العالم

رواية

سـهـام مُـرضـي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1435 هـ – 2014 م

ردمك 978-614-01-1313-8

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

إهـــداء

إلى الذين نظروا من أعلى جبل

فالمهم كل شيء

إنّ قيمة الألم ليست في المعاناة

بل في الرفض

"ليس لهؤلاء في الموتِ أمل، وحياتهم العمياء شـــديدة الضـــعة، فهـــم يحسدون كل المصائر الأخرى، ولا يدعٌ لهم العالم ذكـــراً، وتـــزدريهم الرحمة والعدالة، دعنا من ذكرهم، ولكن انظر واذهب"

فيرجيليو مخاطباً دانتي
وهما يمران بمعذبين
بعد بوابة الجحيم.

في البدء

قرأت مرة لايزابيل اللندي رأياً حول اختيارها للأبطال في أعمالها تقول فيه "بصراحة الناس الطيبين الذين لهم رؤى نمطية لا يصنعون شخصيات جذابة تصلح للرواية، هم فقط يصلحون لكي يكونوا أزواجاً سابقين"

وأنا شعرت بمرارة وثقل وتحدي هذه العبارة حين اخترت "نادية" من بين أولئك الطيبين الذين تقصدهم، ومن بين الحشود المتشابهة والباهتة، والجماهير التي يختلط صوتها فيكون غالبا صاخباً غامضاً وحشياً لا يُفهم لكنه مخيف، بل من أسفل طبقات المجتمع وعياً ووجوداً وفاعلية، لتكون بطلة هذا العمل؛ لأنها هي من اختارت نفسها، أعني أنها كثيرة ومؤثرة في هذا الوعي والمجتمع الذي أنتمي إليه أكثر من أبطال أيزابيل اللندي، ولأنني أردت تقديمها مهما اختلفت معها أو وجدتها غريبة وبعيدة ومعطلة وضعيفة ولا يمكن التواصل معها، فعلى الرغم من كل هذا بها فقد ساعدتني نادية طوال العمل على فهمها، انكشافي

عليها كانسان قبل كل شيء، وقد واجهت صعوبة في تركها طوال العمل تكون هي بدون أن أقحم نفسي عليها كمختلف تماماً وبدون أن أمارس عليها دور المنقذ، وإنني أكتب هذا لقارئي ليعرف أنه ليس من السهل أن تختار بطلاً يختلف عنك بالكامل ولا تتفق معه في شيء، ولا تختاره صديقا في الحياة العادية ليكون بطلك وتكون أنت ضميره وصوته وضعفه وضغينته بكل حياد وبكل ما أمكنك من صبر، إنها مهمة صعبة، صعبةٌ بالفعل.

وإنها محاولة للتواصل أكثر منها محاولة للكتابة، ومحاولة للفهم أكثر منها محاولة للحذلقة، وإنني أتمنى أن تروا نادية معي ومن خلالي كانسان يريد أن يعيش وقبل كل شيء.

الكاتبة

الفصل الأول

– بلطف بلطف قلت لك أكثر من مرة أن الابواب تحتاج الى اللطف لنفتحها والعنوة لنكسرها نحن لا نريد كسر أي باب هنا.

تعرف "نادية" أن مدير قسم الاستقبال والملفات في المستشفى يستعملها كخادمة أكثر مما يتعامل معها كموظفة تحت إداراته، لكنها تتسامح مع ذلك مادام يعني عدم التجريح المباشر وهي التي اعتادت أن تقضي حياتها في لملمة ذاتها بعد كل مشكلة مع رجل ينظر إليها دائما على أنها تلك المرأة التي خلقت للحد الأدنى من مهمة المرأة في ذهن الرجل، ذلك الجزء المتعلق بالشفقة أو النفور المعبّر عنه بصراحة وبصمت أكثر الأوقات، وهي لا تريد رضاه في النهاية لأنها ومنذ ثلاث سنوات هي سنواتها في العمل تقوم بكل شيء كحمار، مستميتة في أداء الأوامر وكأنها ترجو أن يعتقها سيّد سماوي ما مقابل تهذبها الذي يصل لحد الاستمراء والتعود.

عمل تقوم به عاملات النظافة كانت هي تقوم به في تنظيف المكاتب أو نقل الملفات والعينات والمواد بكل ترحـــاب، لـــيس لكونها مقدامة ونشيطة بل لكونها تعتقد أن ذلك عملها بالفعل.

كانت تفتح باب المخزن كل يوم قبل مغادرتهـــا، لتضـــع بداخله كل الملفات وسجلات اليوم، وتغادر راجلـــة بعـــد أن ينصرف الجميع؛ لأنها تسكن في عمارة متهدمة وآيلة للســـقوط مع ثلاث فتيات يستأجرن الشقة المقابلة لها، كـــن يدرســـن في الجامعة.

كانت حياتها تبدو كمن ينتظر صاعقة ليصحو أو يمـــوت، وكان ما يرعبها بالفعل ليس تقدمها في العمر، بل كـــل مـــا لا تفعله، ومالا تقوله، وتشعر بضرورته، تبدو وكأنها تحولت لمخزن يشبه الذي تحمل مفاتيحه كل يوم معها لبيتها، جســـم لخـــزن الانفعالات والبكاء والصراخ والخيبة، إن ما يدهشها كل صباح هو قدرتها على إطباق فكّيها بكل هذه الصرامة على أسنان حادة وبارزة ومشوهة، كلما تفقدت ملامحها أمام المرآة، إنها تملـــك تلك الرحابة الفادحة لاكتشاف مثالبها وعيوبها وتملّـــي وجـــه خسائرها بكل هدوء، وكأنه عمل تقوم به من أجل الغفران.

- حاضر!

صرَخت بها كما تفعل دائما، عندما يوجه لها أمرُ ما، وكان تعرّق يديها - وهي تنهي دوامها وتغلق باب المخزن - هو مـــا

يثير ضجرها فقط، لم تكن قط لتضجر من صوت رجل مرتفع كما تضجر من يدها التي باتت تتعرق كثيرا وتجعلها تُسقط الأشياء وكلفها ذلك انخلاع درج مؤخراً، كانت تشعر دائما أن جسدها يخونها، يمزقها، يعرضها للإذلال والأذية، لأنها تعرف إلى أي مدى يمكنها أن تصبر وأن ترضى وتتغاضى، أما هو فيجعلها تستسلم، تقع مرة بعد أخرى في ورطة أو حرج.

ارتباكها الزائد سببه أنها حصلت ذلك اليوم على تقرير يثبت خلل عمل الغدة الدرقية عندها ويسمح لها بالراحة لمدة أربعة أيام، كتبها لها الدكتور وهي تقول في نفسها، "أربعة أيام من أكل الأظافر، والخس!"، ساخرة من حياتها الفارغة والوحيدة حدّ تصور أن أياما كهذه بلا عمل كل صباح حتى الرابعة بعد الظهر كفيل بالجنون.

وكانت توافق عطلة نهاية الاسبوع لحسن الحظ وبذلك زادت حصتها من الخس والأظافر يوما آخراً.

متململة ارتدت عباءتها واتجهت إلى البقالة التي تشتري منها احتياجاتها لكل يوم وحده، وتوقفت قليلا لتشرب بشرتها البالغة البياض قليلا من أشعة الشمس، رغم أنها لا تكتسب اللون الأسمر بل تتجمع الحمرة والقروح في خدها لبعض الوقت، لكن شعور الدفء هو ما أملته من هذه المحاولة، لا أحد في انتظارها، لا رسائل في هاتفها، لا أعمال مهمة وعظيمة تقوم بها في شقتها

المكونة من غرفتين أبوابها ونوافذها من الحديد كما لو كانت سجناً غير مصرّح، أو مشرحة غيّر القدر حظها في وقتٍ ما.

لطالما شعرت حيالها بالكآبة والرعب، لكنها قريبة كما يقول والدها من العمل، ورخيصة كما تقول أمها، ومع فتيات كما يقول اخوتها، وبجانب المسجد كما تقول جارتهم، كانت شقة مدفونة بشكل ما، اذ عليها أن تنزل درجا للوصول إليها، لا أن تصعد أبداً، في بناية يرتفع كل ما حولها عليها، وكأنها عنادٌ رأسماليّ صغير وصلفٌ ومبتهج.

تأملت ظلها المنعكس على الاسفلت، ورأت امرأة تميل للبدانة في قسمها العلوي، وتبدو ساقاها النحيلتين كفزاعتين لخيال مآتة رديء الصنع، زمت ملابسها قليلا وتملّت كل شيء ببطء كما تفعل دائما، لقد أدمنت مواجهة ذاتها بوقاحة أحيانا وتمنت لو امتلكت مؤخرة على الأقل بدلا من بطن مترهل وصدر عريض، لقد شعرت في تلك اللحظة أنها في مواجهة مع الشمس، مع جسدها، مع اجازتها المريعة، وكان مزاجها يسمح بزيادة الأمر سوءاً في أية لحظة.

فكّرت في حياتها وهل تقصدها بالفعل؟، أم وجدت نفسها منساقة إلى الحد الأدنى منها، من كل شيء؛ الجمال، والحب، والطموح، والتفكير، وحتى المال والعائلة، لقد كانت أشبه بمن يدور حول حياته دون أن يملك الجرأة لمرة واحدة للوقوع فيها،

وتتذكر الآن أن كل ما فعلته هو أكبر قدر من التجاهل، ذلك الصوت البليد الذي يقول باستمرار أن كل شيء سيكون بخير، وأن المشاكل الكبيرة لا تخصني، وأنني لا أشكّل خطراً على الحياة لذلك يمكنني تدبر أمر هذه المشاكل الصغيرة الكثيرة والمتتابعة والتي لا يلاحظها أحد منذ الوهلة الأولى.

تلمّظت قليلاً بهذه العبارة "الوهلة الأولى" وحاولت أن تؤجل التفكير فيها لوقت لاحق، تماما كما تفعل منذ عرفت التفكير، وقت لاحق، كل شيء يمكنه أن ينتظر، كل شيء.

وهي تنزل الدرج المؤدي لشقتها كل يوم تسحب رجليها بهدوء لأنها تكره جاراتها الفتيات، وتشعر في وجودهن ومرحهن واهتمامهن بجمالهن وصخب الحياة في وجوههن بالإهانة والحرج، كما تشعر أنهن فاسقات، وقد رأتهن أكثر من مرة يتحدثن مع شباب بكل جرأة، وهي تخاف من مجرد المرور بجانب شخص تعتقد أنه فاجر، إنها تتخيل أنه يمكنه التهامها أو تحويلها لشيطان سريعاً، وكانت تكتفي بنظرة الاشمئزاز، ولم تعد تلبي دعواتهن المتكررة لحفلات لا تنتهي، إنها حتى لم تغفر لإحداهن تلك الاهانة حين سألتها في أول زيارة: كم تملك من الأطفال، وهل تركتهم وحدهم في بلدتها، تمنت يومها أن تتشوه هذه الفتاة المتحذلقة أو أن تتزوج رجلا كريها لا يرى فيها جمالا يُذكر، وكانت في ذات الوقت تطيل التأمل في أجسادهن وملابسهن

وشعورهن، حتى إنها ذكّرت احداهن أن الدبوس المثبّت لشعرها سقط منها دون أن تشعر، لقد كان شيء في داخلها يحب كل هذا، ويعتني به، ويكترث له برغبة منقطعة النظير.

لكنها انتبهت أخيرا أن شقتهن مغلقة بالأقفال، وأنهن غادرن لمنازل ذويهن كما يفعلن في بعض اجازات نهاية الأسبوع، وهكذا شعرت براحة غريبة، لا تدري مصدرها بالفعل، لكنها تعرف أنها كلما تُركت لوحدها فهذا يعني أنه لن تواجهها شتائم أو منغصات من أي نوع.

فتحت الباب وتوقفت أمامه قليلاً لتتذكر شيئاً لكنها كانت تنسى، وتستغفر كثيراً لتتذكر دون جدوى، وهتفت ولكن ما الجدوى ما الذي نسيته لأتذكره وما الذي أتذكره لأنساه، إن حياتي كلّها شيء يشبه المنام، كل ما يحدث فيه ليس له أثر، حتى عليّ أنا نفسي.

لقد كانت في تلك الشقة أو في حياتها أشبه بأسماك الزينة، التي تذرع الأحواض الزجاجية جيئة وذهاباً بسعادة وبهجة منطفئة لكنها مستمرة بشكلٍ أبله، معتقدة أنها تسبح في المحيط، والأسماك المهذبة المطيعة لا تقفز أبداً، لذلك يطول بها المقام، ولذلك لا تكتشف الحقيقة.

كانت نادية في السابعة والثلاثين بملامح وجسد امرأة في الأربعين منذ أن اكتشفت أنها امرأة، وكان هذا بالنسبة لها طبيعي

ومتسق مع تربيتها وزهدها في ذاتها قبل كل شيء، إذ نشأت في أسرة تربيها وأخواتها على كونهن عار يتطلب قمعه باستمرار، وسرّ لا يجب الحديث عنه بصوت مرتفع.

مددت قدميها أمامها على الأريكة، دون أن تنزع عباءتها بعد فهي لم تكن تفرق كثيرا بين لبسها أو خلعها لأنها تشعر أن ثمة غطاء كبير يغطيها طيلة الوقت، وأنها تعيش داخل عباءة كبيرة سوداء تتسع بحجم العالم وتغطي كل شيء أينما اتجهت، نوعا ما تآلفت معها وكثيرا ما نامت وهي ترتديها، أو استقبلت ضيوف والدتها بها، بل إنها تتذكر في السنوات الأخيرة بعد عطالتها عن العمل لسنوات طويلة أصبحت ترتديها في المنزل طوال الوقت وتتحجج بأنها ترغب في تذكر الصلوات، والحقيقة أنها تشعر داخلها بالارتياح اذ لا يلاحظ أحد نمو شعر يديها وساقيها وبدانتها التي كانت مفرطة نوعا ما.

كانت تشعر بالتعب والارهاق كثيراً ذلك الظهر وخصوصا بعد أن تأكدت من خلل عمل الغدد لديها، إلا أن شعورها بالملل كان هو الشعور الطاغي عليها في ذلك الوقت، تأملت يديها مليا وأظافرها ثم رفعت ساقاً وتملت قدميها كانت تشعر بالكراهية لجسدها ومع ذلك كانت تقف صامدة في مواجهته، ليس بشكل دقيق فقد عانت كثيرا لتخفيف وزنها لكنها لم تنجح، وكان نزول بعض الوزن لديها غريب في السنوات الأخيرة والذي صنع

من جسمها شكلاً عجائبيا غير متناسق، لم تتذكر يوما أنها كانت سعيدة أو مزهوة بأنوثتها، ذلك أنها وطوال سنواتها في بيت والديها كانت تسمع أصوات الرجال أكثر مما تراهم بل إن حتى اخوتها – الذين ينتشرون في مدن السعودية وهم أكبر منها بكثير إذ انجبتها والدتها في سن متأخرة جداً – كانت تخجل منهم ولا تجلس معهم الا لدقائق حتى انها لا تتذكر ملامحهم جيدا، لم تكن أسرتها متدينة عن قصد وعلم بل كان والداها عجوزين أميين يتسمان بالطيبة البالغة والسذاجة ويخضعان للمجتمع بشكل كامل ولتغيراته وحدوده الصارمة، لذلك كانت نادية بشكل ما تربية المجتمع المنعكس في أبويها اللذان كانا يبدآن كل توجيه لها بـ "شوفي بنات فلان" و"ليتك فلانة".

تشعر بأن صدرها صخرة كبيرة مُصمتة، ثقيل ومعتم وبائس ومقهور وقانط، لكنه لا يتزحزح، ولا يتفتت، ولا يسعفها حظها من الحياة والفهم أن تتواصل معه، كانت تتركه هكذا رابض في روحها يغتمّ ويشرب تعاسات الوقت وهو أخرس، كان عجزها عن الكلمات يزعجها ويبكيها، تبكي كثيرا وهي تتحدث، توشك دائما أن تقول شيئا ما لكنها لا تصل إليه، ولا تتكهن به، بل إنه يصبح بعيداً كشيء خفيف يطير عنها وهي تراقبه فتصير أثقل من ذي قبل.

شعرت في تلك الظهيرة بمشاعر متداخلة وغريبة، وأرجعت الأمر لشعورها بالمرض، وسيطر عليها قلق الأمراض والتقدم في

العمر، وفكرت في السرطان بالذات، كان المرض الكبير الضخم العملاق الذي كلما سمعت أن أحدا أصيب به فهذا يعني أنه قريب من الموت، لم تكن خائفة من الموت بالتحديد، بل من فكرة أنها لم تعرف الحياة بعد، وخيّم عليها حزن ثقيل أن الوقت قد فات على كل شيء، وأن الأمراض ستلتهم ما تبقى منها. مع أن صحتها كانت جيدة ولا تعاني من أمراض السمنة، إلا أنها تعودت أن تتوشح المخاوف والقلق والغم عن آخره في كل مرة تجلس فيها وحيدة، إذ أنها المهارة الوحيدة التي طورتها مع السنين، وفكرت كما تفعل دائماً أن حياتها ستكون مغايرة في الآخرة، وأنها ستكون رشيقة وجميلة وسيكون لديها رجل يحبها بجنون، تخيلته يسرع في احتضانها، وهجست بكل أحلامها دفعة واحدة، جمعتها في مشهد سماوي متكامل، وساعدت نفسها على النهوض بترديد عبارتها الأبدية "هذه حياة فانية، وتمتمت باستغفار وتسبيح متداخل ومعتاد.

تشعر نادية أنها محاطة بالماضي من كل اتجاه، بثقل رهيب وغامض ومسيطر لا يمكنها التزحزح منه، لأنها لا تعرفه بالضبط بل تشعر به، كانت تشعر به كلما حاولت أن تفعل شيئاً مغايرا أو جريئاً، إنها لا تنسى الليلة التي وقفت فيها على عجزها عن فهم شيء أو تغيير شيء كانت تعرف أن والدتها مريضة بأمراض عضوية وليس للسحر أو الجان دخل بالأمر ومع ذلك وقفت مع

اخوتها وهم يشاهدون رجلاً ملتحيا يضرب أمهم في أماكن متفرقة من جسدها ليخرج منها الشيطان، لقد شعرت بكراهيته وبفشله، وتألمت من أجل والدتها لكنها لم تجرؤ أبداً على معارضة هذا، كانت تسلي نفسها بفكرة أن هؤلاء يعرفون العالم الخفي ويشعرون بالجن وأنه من المفترض أن تصدقهم، وأن تتأدب عن شتمهم، أرادت أن تقول لأخوتها أنها تعرف أن أمها تتحسن إذا خرجت وتنزهت في فناء البيت وزرعت الريحان والحبق والزهور والدراق والعنب، ، أنها لا تمرض إلا حين تجتمع عليها مشاكل أبنائها ومكوثها في البيت لوقت طويل وانقطاع المطر، إنها تعرف أمها وتعرف أنها بخير و لم يسبق للجن أن تحدثوا بدلا عنها معها، لكنها لا تستطيع التجرؤ على قداسة ما يفعله رجل ملتحي يؤكد للجميع أن أمهم ممسوسة بالشياطين.

عرضت لها فكرة مفاجئة أنها هي أيضاً ربما مسكونة بشيء خفي وأنها في الفترات الأخيرة تتعب بلا أسباب، لقد فضلت في تلك اللحظة بشيء من نفسها القلقة المفتوحة بضراوة على عالم القلق والرهبة أن تتخيل أنها بالفعل مصابة بالمس، وأن تتجاهل تقرير الغدة لأن هذا الخوف أكبر وأكثر نجاعة مع طبيعتها وما تشعر به، وبدأت بالفعل في تفقد جسدها وتحزر من أي مكان يمكن أن يكون دخل إليها، وبالغت في ذلك فقررت أنه موجود في كدمة قديمة تميل للاسمرار في ساعد يدها اليسرى، وضعت

يدها عليها وبدأ الخوف يستولي عليها بالفعل لقد شعرت أنها بقراءتها لأي معوذات أوآيات على ذلك المكان فإن شيطانا ما سيتحدث معها طالبا منها التوقف عن تعذيبه، تملكتها الفكرة تماما فهرعت إلى هاتفها لتتصل بأمها فهي لم تتحدث معها منذ أكثر من شهرين ليس لسبب بل لأن التواصل مع والديها كان معدوما وبائساً ومعتوها في جملته، ولأن أمها تعتقد أنها إذا لم تكن تحتضر بعد فهي بخير، وكل اتصالاتها لأمها كانت عبارة عن اربع كلمات بأنها بخير وعلى قيد الحياة، إذ لم تكن أمها تفهمها ولا هي تعرف عن عالم أمها شيئاً، لقد كان الأمر أشبه بالهالة التي تحيط كل واحدة إزاء الأخرى، أمها تراقب وجودها بأنه حياة مستورة وجيدة، وهي تراقب وجود أمها وحركتها بأنه أمان ورضا وكانت هذه كل الحكاية، تنتمي أمها لزمن بعيد ومختلف ومفرط الرضا والحبور واليقين لدرجة العبادة، وتنتمي هي لجيل متطلع بخوف وخجل وجهل وأرتال من الخطوط والممنوعات والتشوش واليأس، لكن سنوات من التسليم والانقياد للريح خلقت من نادية مخلوقا وديعا يسلم في الأخير بكل ما هو موجود وشائع وكثير ومتاح، لم تكن قط لتخرج عليه، لأنها لم تملك الطموح الكافي، ولا الرغبة المحرضة كانت شيئاً يشبه الطينة التي تشكلت وانتهى الأمر وعليها أن تعيش داخل هذا القالب أيا كانت الحياة، وأيا كان ما يقرره ويصل إليها به هذا القالب،

مدفوعة باليأس أو بالأمل كانت حدودها وحدّها منه قد رُسما من قبل، وليس لديها منهما ما يقلق راحة القالب.

مرتجفة وممسوسة الرأس أمسكت بهاتفها لتسمع أي صوت يخرجها من هذا الخوف الذي صعّدته في جسدها روحها الخرافية بلا حدود، لاهثة وتبتلع خوفها وتزفره، وجدت هاتفها وقد انتهت بطاريته، وكان عليها أن تبحث عن الشاحن لإعادة شحنة على وجه السرعة، هرعت لغرفتها التي تثبت بابها مفتوحاً بوسادة حتى لا ينغلق فهي لا تملك سوى مفتاح الباب الأساسي منذ دخلت هذه الشقة وهذا الباب بالذات لا مفتاح له فتحرص على ابقائه مثبتاً بأي شيء ثقيل، لكنها كانت تتحرك بتخبط وهلع يسيطر عليها خوف هلامي يتكاثر في رأسها كلما استيقنت وحدتها وسفر جاراتها الفتيات وخلو المكان من أي انسان سواها، فدفعت برجلها الوسادة للداخل لكنها لم تهتم إذ دفعت بجسدها بذهول مرتعب وكان خوفها أكبر من كل صوت وكل فكرة أخرى حتى إنها صارت تهرب منه بالفعل محدثة جلبة في كل اتجاه فلم تكن وقتها تبحث عن الشاحن بالضبط بقدر ما كانت ترغب في أن يكبر صوت ما سوى صوت نفسها التي تصنع أشكالا وكلمات ووجوها لشياطين لا حصر لهم يطاردونها ويقولون اسمها ويقهقهون، ارتمت بثقلها على الأدراج التي بجانب السرير، وشعرت بألم حاد في ركبتها لكنها تجاهلته وبدأت تقلب

الأدراج بجنون غريب، وكأنها خرجت من نفسها وباتت تراقب جسدها البائس من بعيد، وكل ما حولها يصبح مترابطا يشـــحذ الخوف من الظلمات والنفوس المعذبة في أودية سحيقة وتعمرها العفاريت والخوف والنحيب والأهوال.

قطع صوتٌ هائل وسريع ومدويّ هذا اللهاث المشوش الذي تتعارك معه وبه مع خوفها، فضرب قلبها في يـــديها وأطرافهـــا وابتلعت صوتها تماماً، لكنها بعد لحظة تمكنت من تمييز ما حصل وبقلب فارغ وجسد واهن التفتت أخيراً، لتجد الباب الـــذي لا تملك مفتاحه وقد انغلق عليها بعنف.

ليس باباً واحداً ذلك الذي انغلق عليها تلـــك اللحظـــة ولا تملك مفتاحه، وليس حديديا وصلباً وثقيلاً فحسب، لقد شعرت نادية أنها أصبحت بعيدة في مكان مهجور ومقطوع وشاسع يملؤه خوفها وعجزها وصمتها من كل اتجاه، درات بها الغرفة و لم تفهم بعد ما الذي حصل، ولا ما الذي ينتظرها، كانـــت محبوســـة في اللحظة المسعورة التي ضاعفها الخوف حتى صارت هي كل حياتها وصارت خاضعة لها تماماً، لقد أدخلها الخوف كما يفعل دائماً في حياتها إلى سجن جديد، لكنه هذه المرة محكم وضيق وحقيقي.

نزّ دمٌ غزير من ركبتها منذ اصطدمت بحافة الدرج لكنها لم تتصوّر أن يكون غائرا لهذا الحد، لقد شوشها الخوف وكانـــت فورته برأسها أشد حرارة من جسدها ومن كل شعور، ضغطت عليه بيدها محاولة أن تخفف النزيف لحين استيعابها ما حصل لها، وكانت تضع عيناً على الباب وعينا على جرحها النازف، وتدور برأسها أفكار متلاحقة وقلقة حول ما الذي ستفعله للخروج من هذه الغرفة الضيقة الفقيرة البائسة.

لقد سيطر عليها يأس مقيم و لم تعد مرعوبة من الجن، بـــل من هذا الباب القابع في روحها ووجهها ورأسها، كيف لهـــا أن

تفتحه، هاتفها بالخارج، وجاراتها في اجازة، ويعلم الله كيف ستتحمل العيش في انتظار صدفة أو حظّ لإخراجها من هنا، كان عجزها يكبر وخوفها يلتهمها أكثر، ويتوقف رأسها عن التفكير في أية فكرة سديدة، شعرت أن يديها اسنفجية وأن قدميها تشبه أقدام لعبة العرائس والخيوط المربوطة بها مقطعة وممدودة بجانبها، لم تعد قادرة على التواص مع أطرافها، نقع خدّر غريب كل خلية في جسدها، واستماتت على حركة واحدة ذاهلة العينين.

لقد حدقت في الباب الحديدي الضخم الذي وقف أمامها بتصميم قاتل، كأنه يُراكم خلفه حياتها التي لا تعرف عنها شيئاً بعد، فامتد وتطاول واتسع كأنه مضروبٍ بين الأرض والسماء بينها وبين الأمل، لقد شعرت أنها كلما حدقت فيه بأنه يكبر ويغلظ ويصير جلاداً ووحشاً وعفريتاً ورجالاً كثيرين، شعرت أنه متصل بالجدار والغرفة كاملة، وأنه يزداد صلابة وتماسكاً، وأن الغرفة تصغر وتضيق وتصير حفرة غائرة في بطن الأرض، لم تكن تفكر في جرحها بعد أن تيبس الدم على أطراف أصابعها ووجهها مختلطا بالدموع واللعاب والمخاط، كان الباب الكبير يستولي على تفكيرها، وكانت تجلس على السرير قبالته، وتسند رأسها على الجدار، وكلما فكرت أكثر فيه كلما ابتعد الناس والحياة وجاراتها وعملها وضحكاتها وأمها وبيتهم وحتى النذل

"ناصر" الذي وضعت قلبها تحت قدميه لأنه كان أول رجـــل في الحياة يقول لها كلاما جميلا.

بكت نادية لساعات طويلة حتى جفّ رأسها تماماً وصـــار لصدرها نشيج مسموع، وانتبهت أنها ماتزال قابعة في هذا السواد مرتدية عباءتها منذ غادرت المنزل في الصباح، يطاردها الوجـــود كاملاً ليحشرها فيها وفي هذه الجدران الخرساء وفي هذا الحـــظ العاثر لا تخرجها منه شمس ولا بشر، وازداد عليها الظمأ بعـــد أن أغرقت كمّيها ووسائدها بالدموع والحسرة، وكانت تتوقف دون أن تشعر وهي تستحضر حياتها الهلامية الخافتة الخفيفة والـــتي لا تكاد تُذكر، وتستغرب كيف أنها تخاف الآن من الوحدة والعطش والنسيان، وهي عاشت طوال حياتها فيما يشبه هذه الغرفة تمامـــا، لقد أرادت أن تتذكر شيئاً يسعدها عن ذاتها وحياتها فلـــم تجـــد سوى لحظات من الطفولة تظهر لها مبتورة وغامضة وبعيدة.

وفكرت أنه لسوء حظها حتى ناصر الذي نبت في صدرها حديقة من أجله ذات يوم مر على آخر لقاء لها به ستة أشـــهر وهو يتهرب منها ويغلق هاتفه ويتحجج بانشغاله ومرض أطفاله حتى قال لها في آخر يوم أنها بالنسبة له غلطة، بعد أن كانت تلح عليه وتنتظر منه أن يتزوجها.

تذكرت أول مرّة عرفته فيها، كانت تصرف الدواء لرجل يرافقه ناصر الذي يعمل رجل أمن في أحد الأسواق وسائقاً لأبناء

عائلة من أقاربه منّ عليه بهذا العمل ليتمكن من اعالة اطفاله الأربعة وأمهم مع مرتب بائس يتقاضاه من أحد الأسواق مساء حيث يعمل حارس أمن عند بوابته، كان ذلك الصباح يرافق قريبه هذا ويصرف عند باب الصيدلية روشتة الدواء حين لمح عينيها من تحت النقاب، وقد كانت نادية تملك صوتا أنثويا منساباً ويعطي انطباعا جيدا عنها لحد بعيد، فبدأ يطيل الحديث معها ويثني على صوتها وعينيها، وكان صوته هو أيضاً أول شيء لفتها إليه لقد فكرت من صوته الرخيم المتناسق والذي يشبه صوت من يتحدث عن خبر حزين عميقا ومتباطئاً ويغمره الاكتراث أنه شخص مرموق ويعمل في جامعة أو شركة كبيرة، مع أن ملامحه كانت بسيطة وأنفه مفلطح وعيناه صغيرتان ومحاطتان بهالة من السواد والتعب وشفتان بارزتان اسودتا تماماً من التدخين، إلا أنها فضلت الصورة التي صنعتها له، إن الصوت خديعةٌ كُبرى ووهم جميل كالموسيقى، وإنه قادر على التأثير فينا وتغييرنا كلما كان جميلاً، ومهما يكن فإن الصوت يستطيع أن يخضعك لزيفه على أن توجع أذنيك جلبة الحقيقة، فنادية لا تعرف عن الرجال سوى انهم كائنات مختلفة عنها، ومخيفة، وخشنة، وخطيرة، ومعدومة الحياء والأخلاق، كانت هذه فكرتها عن الرجل وكان يبتعد عنها كلما تقدمت في العمر وكلما تزوجت صديقاتها في البلدة وكلما لم يتقدم لخطبتها أحد،

لكنها لم تكن لتأخذ ذلك بجزع بالغ، اذ صنعت من نفسها مع الوقت عانساً متوافقة وراضية، وكانت تتخيل أنها ستتزوج من أي رجل كبير في السن أو رجل يريد من تربي أطفاله اليتامى، أو رجلا لديه عاهة ما، هكذا قدمت نادية لنفسها خيارات الرجل في حياتها، لذلك كان لكلمات ناصر وقع العصافير في قلبها، وطار من داخلها سرب حمام وهي تسمع كلمة "شكرا يا قمر" منه وهي تسلمه الدواء.

وكم كانت الحياة حفلة صاخبة وصيحات سعادة متداخلة ومنتشية ورعوية وغير مفهومة ومتدافعة في قلبها وهي تكتب له رقمها بعد أن عاد، وطلبها إياه قبل أن يتنحنح بحبور ويخرج.

كانت سعادتها لا توصف وهي تسمع رجلاً يتحدث معها بلطف وحميمية لأول مرة في حياتها، لقد كان ذلك بقدر ما يبهجها يخيفها لأن ناصر لم يرها بعد، وكانت تشعر بالتردد في كونها لن تعجبه، واكتشفت في ذاتها امرأة برغبات أنثوية خالصة ومتطلبة، بل إنها اكتشفت أنه يمكنها أن تقول كلمات جميلة وتغرق الهاتف بالقبلات والتأوهات، وكانت تقف كثيرا بعد المكالمات لتتأكد أنها هي، ولتشجع نفسها على مزيد من الانغماس في هذا الحلم الجميل الذي يشبه أن تفاجئها الحياة بدلاً من الخبز اليابس بقطعة حلوى فاخرة.

كان يكذب عليها وتكذب عليه طوال أربعة أشهر، صنعت من نفسها الفتاة المدللة الصغيرة التي لم تحرم في حياتها من شيءٍ والتي وقعت في غرامه من بين عروض كثيرة، وصنع من نفسه رجلا عصاميا أجبرته عائلته على ابنة خالته، وأنه يفتقد للعاطفة ويعمل في شركة اتصالات مستفيداً من المعلومات التي يحصل عليها من قريبه الذي يعمل سائقاً لأولاده.

كان كل شيء مرتباً كجنّة مؤقته معمورة على جبل جليدي من الكذب، لكن نادية فضّلت تجاهل كل ذلك الانهيار الذي ستمنى به في مقابل الركون لهذه الدعة والبهجة المصنوعة بصدق لا مثيل له من حيث مشاعرها ورغبتها في الحب، لقد كانت محرومة بشكل فظيع، وجافة كصحراء ومهملة كبيت مهجور، ومهشمة وفاقدة للثقة، و لم يكن هناك من قوة لتقنعها بالتحفظ أو التوقف عن ضخّ كل ما تملكه من أمل وثقة واندفاع ورغبة في هذه العلاقة البائسة.

لقد كانت تبكي من السعادة حين يتصل بها، وتضحك من أعمق نقطة للشعور، وتنفصل تماماً عن واقعها وتحلّق كابتهالٍ صوفيّ يدور بك ويدور، وتخف روحك وتصير بيضاء تطير متجلّية وصافية، ومحلّقة ومستعدة للموت من زخم اللحظة.

لقد شعرت أنها امرأة مغايرة، وكان صوت ناصر وعباراته المكررة العادية التي يستقيها من الاغاني الهابطة والمسلسلات

وأشرطة الشعر الرديئة التي يستمع إليها في سيارته تنقلها إلى سماء أخرى غير سمائها التي تقبع على رأسها من ضـــيقها، وإلى أرض أخرى غير الأرض التي لم ترَ منها سوى بيت أهلـــها وعملـــها وغرفتها هذه، ذلك الصوت والأمل الفقير جعلاها تنتصر لأول مرة في حياتها على شعورها المتراكم بالذنب والخطيئة والـــنقص والعيب، وجعلها توافق بعد أشهر على مقابلته، لقد كانت تقول لنفسها ولو لم يكن سوى ليلـــة، إن ليلـــة واحـــدة في الحـــب ستكفيها، لقد عودت نادية نفسها على القناعة والكفاف حـــتى صار يرضيها من كل شيء خياله وتمني مثيله في الحياة الآخـــرة، وكان ناصر أول شيء تجرؤ على تمنيه في الحياة الدنيا.

مكثت خمس ساعات تجهز نفسها وترتدي المشدات لإخفاء كرشها المترهل، و لم تجد كعادتها سوى الملابس السوداء لتبـــدو بقدر الإمكان أخف وزناً، وحشدت كل طاقاتهـــا في وضـــع المساحيق على وجهها، واكتشفت حجم بؤســـها في امـــتلاك أدوات زينة مناسبة في وقت متأخر، رسمت حاجبيهـــا فبـــدوا كجناحي غراب، لكنها عادت ومسحتها، وشعرت أن الشـــعر غير مهذب وأن الاشقرار الذي يحيطهما من تتابع عمليات تشقير حاجبيها جعلاهما يبدوان كنهر أسود تحيط به رمال صفراء، لكن ذلك النهر لم يكن منساباً ولا جذاباً، بل بشعاً بشكل يجعلـــها تركز اهتمامها على خديها النازحين للأسفل بشحوب، وتأملت

إن وجهها كله يجلب الغم، ولا تملك سوى أنفها لتتأمله برضا، كانت أسنانها تزداد بروزا كلما تأملتها في المرآه وشفتاها تكبران بشكل مخجل، لقد نزلت من عينها دمعة وهي تخرج من البـــاب ذاهبة إليه، وفكرت مرارا في العودة ونسيان كل شيء، وتحجرت عند الباب واجمة ومطرقة، يطوقها خوف وشعور مرير بـــالقهر، لقد شعرت ذلك الوقت أنها عذاب وخطـــأ، وأنهـــا مظلومـــة بفداحة، وأن حظها لعين وقاسي، وأنها بنت مسكينة وتريـــد أن تحب، لقد أرادت أن تشتم أوشكت أن تفعل لكنها اســـتغفرت واستجمعت قواها وقالت ليكن، الوجع لـــيس جديـــدا علـــي سأجرب.

كان الذنب الذي لم يقع هو خطيئة نادية الفعلية، والخطـــأ الذي لم يُرتكب هو مشكلتها التي تطوقها مـــن كـــل اتجـــاه، خوف من خلفه خوف، وصور لعذاب لم تكن لديها شـــجاعته يوما.

كانت كلما خرجت من شقتها تشعر بذات الشعور وهي تخرج مع عائلتها من بيتها، أنها شيء ثانوي وضعيف وبالغ العتمة ويمكن أن يضيع في أية لحظة لقد كانت سابقا تتشبث في يد أمها أو احد إخوتها، كانت كشيء لا يقف في البداية ولا في الأخير بل في المنتصف، منتصف كل شيء، أمر غير مبتوت، وقرار غير متخذ، وفكرة لم تخرج قط من رأس صاحبها.

مشت بخطوات خجلانة ومهزوزة، كأنها مع الزمن صارت مشيتها الحقيقية فراحت تبني على أساسها خطواتها وطريقها وأهدافها، وتآلفت معها للدرجة التي لم يعد يمكنها تجاوزها ولا تغييرها، اليدين مربوطتين بشدة على أعلى بطنها، وملتصقتين بجنبيها كما لو كانت تصلي طيلة الوقت، والرأس منحني تركز فيه العينين الجاحظتين خلف النقاب على الطريق التي أمامها تماماً فقط، وقد ترتطم بعمود أو شخص ما فجأة وكثيرا، لكنها ما ان ترفع رأسها حتى تعاود مشيتها القديمة بكل هدوء ورتابة، من يراها من بعيد سيشعر أنها إما تهرب من جريمة شنيعة وتتخفى عن عيون تعرفها وتميزها من بين الناس تماماً، أو أنها شخص يربض ندم فظيع في قلبه ويعقد يديه ورأسه في اتجاه الأقدام.

لم تكن متوجهة إلى ناصر بحد ذاته بل إلى فكرتها البالغة السعادة عنه، وفي مكان مظلم خلف أحد الشوارع وعبر زقاق ضيق عبرته بقلب يضج من الرعب ودهست فيه على الكثير من الأشياء اللزجة والنفايات وفزعت فيه من قطة عبرت خاطفة من أمامها، وصلت إلى حيث يقف ناصر في انتظارها وصعدا معا لسيارته التي مشت خمس دقائق لبناية مهدمة وقديمة وتتوزع على نوافذها الكراتين والاقمشة الملونة كستائر، وتغطي سطحها الأطباق الفضائية وتقطنها العمالة والغرباء، حين توقفت السيارة شعرت بلكمة في صدرها لكنها كانت تتنهد وتعد نفسها أنها لن

تسمح لمكان ولا لزمان ولا لأحد أن يوقفها عن ما تشعر به من حلم جميل، وعوضا عن أي كلمة نزلت بهدوء وكم كانت دهشتها من نفسها في تلك اللحظة للدرجة التي كانت تتحول لشخصين أحداهما تتعجب من الأخرى فيها وتلومها وتهينها والأخرى صامتة بامتلاء عجيب يغرق في تلك اللحظة ولا شيء سواها، شعرت كما لو عائلتها لم تخلق أساساً، وأن الشوارع والمدينة والوطن كله قد اجتثته ريح قوية ولم يبقَ منه سوى هذه البناية وهذا الزقاق وهذه السيارة التي ينزل منها ناصر، وأن كل الأصوات والصراخ وكلام الناس والفضائح والوشايات والوعاظ والنساء- وبالذات جاراتها الجميلات- صارت همساً خفيفا ناعماً لا يكاد يُسمع ولا يساوي شيئاً عند صوت عبرتها التي تتغضن في حنجرتها وتسمعها في أذنيها حتى أنها سمعت وانتبهت لصوت عضها المتواصل لشفتيها، وصوت كل خطوة لناصر باتجاهها وهو يقول بأن المكان ليس على مقامها لكنه كل ما يستطيعه لأنه يخاف من الفضائح وليس لأنه بيته في الحقيقة، بعد أن أوصل زوجته وأطفاله في الصباح لبيت أهلها.

كانت تصعد معه الدرج وهي تشعر أنها امرأة أخرى منفصلة عنها بالكامل، وأنها حين دخلت من باب البناية كانت تدخل إلى الحياة بحد ذاتها، دبّ فيها الحماس والروح وصارت خفيفة تصعد الدرجات وكأنها فراشة يغريها النور ولو كان يحرقها في النهاية.

لكنها وما إن وضع يده في يدها وهو يهم بفتح الباب حتى فزعت وسحبتها من يده وكأنه الموت، ولشدة فزعها شهقت بعمق وكادت أن تسقط، لكنه عاد واعتذر منها وهدأ من روعها وطالبها بالدخول حتى لا يشك بهم الجيران، حين دخلت بيته عادت للواقع من جديد وعادت قرود تقفز في وجهها من كل اتجاه، وكان يبدو أن قبيتها كلها تتقافز حولها وتصيح صيحات هوجاء متتابعة في رأسها، فتجفل منها بالتسبيح والاستغفار.

جلس ناصر في الصالون بانتظارها، ولكنها في تلك اللحظة عادت من جديد لنادية التي لم تعد تحلم بعد، إنها هنا، بكل خوفها وجهلها وقبحها وعنوستها وجيش من الهزائم تسحبه في كمّها وتلين منه ركبتيها حتى لكأنهما طين من جديد، قبعت أمام مرآة عند المدخل وكلما نظرت لوجهها تأكدت أنها هي وأن شيئاً عظيما وأكبر منها ومن كلّ ما تعرفه وما لا تعرفه جاء بها إلى هنا، حيث هناك رجل ينتظرها بعد هذا الجدار، وفكّرت يا لهول هذه الكلمة في نفسها "رجل" لقد كانت تؤثر فيها في هذه اللحظة كما تؤثر فيها كلمة غول في الحكاية التي لطالما أخافتها بها أختها لتنام وهي طفلة، وكانت كلمة رجل تكبر وتكبر في رأسها فتتيبس في مكانها ولا تدري كيف لم تشعر أنه رجل طوال أشهر وهي تحدثه سوى في هذه الليلة؟!.

تنحنح ناصر وهو يهرش رقبته ووجهه ويحك أنفه وعينيه بتوتر وينتظر، وقال لها "تعالي لا تخجلي كنتِ جريئة في الهاتف ما بكِ الآن".

استجمعت قواها كمن يرمي نفسه للذي يخيفه بدلا من أن يهلك أعصابه في مجرد الخوف، كانت تمشي وتشعر أنها تسقط في حفرة و لم يعد لشيء أن يقنعها بالعدول عن قرارها، وقفت في بداية الصالون وأطرقت للأرض" كانت تريد أن تصرخ: "أرجوك لا تراني!" لكنها صرّت على أسنانها وفتحت عينيها وأيا يكن الذي تنتظره فقد جاءت إليه.

تذكرت نادية تلك الليلة وهي تركز عينيها على مزلاج الباب الحديدي وخطرت لها فكرة سخيفة أن مزلاجا مفتوحا لباب مغلق تشبه حياتها بالضبط، شيء زائد ولا معنى له يقف على قاعدة عريضة ومتينة وثابتة ووأن الأشياء الزائدة الهامشية فضلاً عن كونها مضحكة فإنها تجعلك تشعر بثقل الجحيم الذي يحيط بها ويعطلها ويتلاعب بها.

كان حزينا وموجعا ما تذكرته، ما تعرفه في نفسها أكثر من كل كلمات العزاء والشفقة التي سمعتها في حياتها، ما تهرب منه وتقوله لها ذاتها بمنتهى الوضوح وفي صرامة غريبة خلف نفسها المدافعة، ذلك الوجوم الذي امتقع به وجه ناصر لحظة التقت به عينيها، وتلك الدهشة والنفور الذي ابتلعه وجثم به على مقعده

ساكتاً لوقت كاد يبكيها أمامه، لقد عرفت أن الضيق كساه من توقعاته، وأنها لم تكن تلك التي رسمت نفسها له ولا التي رسمها هو في خاطره، ومع ذلك فقد استغربت أنه تجاهل كل شيء في لحظة ولم يعلق على شيء بل استجمع يأسه وقال "تو ما نور البيت!".

كانت ما تزال مرتدية عباءتها، ولم تندهش أنه لم يطلب منها أن تطرحها عنها، بل طلب منها الجلوس، وبقي ساكتاً ينظر أمامه ويتظاهر بالانشغال بهاتفه، لم يكن يملك قدرة للتعبير عما في نفسه من خيبة، وكان يقارن ما بين خيبته ومقدار ما يمكن أن يستفيده في هذه الحالة، بالنهاية لم يكن مشتاقاً إلى الحب لأنه لا يعرفه ولم يسبق له أن تطاول طموحه عن الأشياء التي في المتناول، لقد قرر تلك اللحظة أنها لن تخرج قبل أن يمارس معها الجنس وكان هذا ما يسكته طويلا لأنه لا يريد أن يكون واضحا أمامها لهذا الحد.

لقد كان خجل مرير يتلوى في روحها وهي تجلس قريبا منه، خجل تعرف أنها لم ترتكبه بقدر ما كان قدرها، كم هو صعب أن تخجل من شيءٍ لم تختره، وأن يكون هو ذاته ما يلومك عليه ويجرحك به الآخرين، كم هو جبّار ذلك الحزن الذي يتصدع في صدرك من قهر وجودي مُختار لك، وأنت ضميرُ زلاته وسندان مطرقته التي لا تتوقف ولا ترحم.

كانت تريد أن تحلف له بكل الأيمان وحتى الصباح وحتى آخر يوم من حياتها أنها تشبه تلك التي حدثته عنها طيلة أشهر، وأنها لسبب لا تعرفه ولا يمكنها تغييره تلبس امرأة لم تحبها يوماً، كانت تريد أن ترتمي حتى في حضن الشيطان أن يحبها ناصر ويراها أجمل.

قبض حزن حارق عضلات بطنها، رقت له نفسها ونزلت من ضيم عصرته دمعة هائلة من عينها شعرت بها على ظاهر كفّها وهي تتذكر كيف أنه طلب منها بعد دخولها عنده بدقائق فقط أن ينام معها، وكيف أنه لم يجردها من كل ملابسها، واغلق ضوء الغرفة سوى من ضوء بسيط ينعكس من الردهة، وكيف كان فيما بعد ومرارا يحوّل وجهه عن وجهها، و لم يسبق له أن قبّلها أبداً، حين غمرتها هذه الفكرة عن القبلات نشجت بصوت مرتفع وانتحب كل شيء فيها حتى إنها كانت تستعين بالنحيب على هذه الفكرة لتطفئها في نفسها، فيا كم كانت موجوعة وناقصة ومطعونة القلب والذكرى!.

لا تتذكر نادية عن حياتها تصرفاً جريئاً كما فعل بها الحب، أو ما ظنته حباً لأنه كل ما حصل لها، الرجل الوحيد الذي منحته حياتها لها، فلطالما كانت محاطة بالرعاية المفرطة حدّ التهميش للدرجة التي صارت هي مع الوقت تحمي هذا الحيز الصغير لأنها صارت مؤمنة أنه موضعها وطريقها في الحياة، تتذكر كيف

كانت تتابع مع أخواتها في دائرة تُمسك احداهن بالأخرى ويحيط بهن رجال العائلة حتى ابن أخيها الطفل ذو العاشرة كان من العقد الرجالي الذي يحوطهن أثناء تأدية الطواف حول الكعبة، لقد كانت سعيدة نوعا ما وهو يأمرها بتغطية يديها والحرص على عباءتها ألا تدهسها الأقدام في زحام الطواف، وكم تغنت أمها وأثنت على ذلك الموقف البطولي كما تراه، مع أن أحدا لم يكن يحميهن من عدو بل كانوا يفعلون ذلك لئلا يختلطن ببقية الطوافين من الذكور الغرباء، ومازالت تتذكر كيف أن هذا الصغير نفسه كان يوصلها إلى المعهد الذي كانت تدرس فيه ابجديات الحاسب الآلي بعد أن تعطلت عن الزواج وقتا مؤرقاً، وكيف أنه كان يلقي عليها الأوامر وبسعادة كانت تتلقاها، ظنا منها أن ذلك فقط طريقه ليكون رجلا.

وفي البيت كانت تقدم الطعام لإخوتها وتحلب الماء وتغسل الثياب وتنتظر زوجاً، كان هذا بشكل كبير قد صار ما تعرفه عن شكل الأخت في بيتهم، ولم يكن ليتعدى هذا أبداً.

كانت أدوار الحياة قد ترتبت وصارت ميثاقا مع التكرار، وهي ذات الأدوار التي تسري على كل البيوت حول بيتهم إذ لم يكن والدها يؤمن بشيء ولا يطمئن له وفقاً لماهيته وقيمته بل كان ومنذ عرفت الحياة ينتظر أن يصير موجودا عند الجيران كلهم ويصبح شائعاً ومقبولا ثم يقبل به ويدخله لبيته، ولا زالت

تتذكر كيف أن الفضائيات كانت جزءا من هذا القبول الـــذي حصل لأن أبو سعد وأبو صالح المقابلين لبيتهما صـــارا يقتنيـــان طبقا فضائيا في مكان بارز على السطح، وكيـــف أن الهـــاتف الثابت كان لسنوات طويلة موجودا عند رأس والدها ولا يخرج من غرفته أبداً، وأن جارتهم أم سعد كانـــت تختـــار تصـــاميم ملابسها وأخواتها مع بناتها وترسلها في تصميم واحـــد جمـــاعي للخياط، لقد كانت عائلتها تُدار بشكل تلقائي من قبل الجميـــع و لم يكن في ذلك أي انزعاج أو غرابة، بل إن حتى الأدوية الـــتي كانت تنجح مع احدى الجارات فإن أمها تسارع بشرائه أو أخذ المتبقي منه لنادية وأخواتها، وكم أغرقتهن فكرة أنهن مصـــابات بخلل في افراز الهرمونات بعد أن قامت حصة ابنة الجيران بفحص عند الطبيب لتأخر دورتها الشهرية وتساقط شـــعرها، وامـــتلاء بشرتها بالبثور، وبسهولة صار ذلك الخلل جماعيا، وصـــار دواؤه وصفة للجميع.

عادت بذاكرتها لآخر ليلة تحدثت فيها مع ناصر، وهي تلح عليه أن يتزوجها وأنها منذ البداية لم تكن لتثق به وتستسلم له لو لم يكن وعدها بالزواج، تهرب منها مرة بمرض احدى بناته ومرة بوقوعه تحت الديون، ومرات بالانشغال برزقه، مع أنها عرفـــت تباعا كل شيء عنه وبقيت ترضى بكل شيء حتى إنها مـــرة وفي فورة يأسها قالت إنها ترضى أن تعمل خادمة عنده وأنها ترضى

بمساكنة زوجته واطفاله في ذات الشقة الضيقة الفقيرة، لكن انهزامها ذلك وكل توسلاتها لم تكن لتجدي شيئاً، فناصر لم يحبها و لم تكن لديه أية نية للخروج من هذه العلاقة بخسائر.

تذكرت كم اتصلت على هاتفه المغلق، حتى تأكدت أنه غيّر هاتفه، وكم ذهبت لانتظاره عند باب شقته لكنه لم يكن يظهر، وكأنه بالفعل كان وهما جميلاً، جعلها تدرك فقط المسافة بينها وبين الحياة من جديد.

لم يكن يعذبها في تلك الأيام الخوف، فوالداها صارا عجوزين بالكاد يتدبرا أمريهما واخوتها بعيدون كما لو أنها لم تعرفهم أبداً، وقد وافقوا والديهم في عملها لأن أحدهم ليس مستعدا لاستضافتها في بيته في حال حصل لوالديهم شيء، و لم يكونوا يساعدون والديهم بالمال وكان لزاما أن تعمل متأخرة وفي سن يئسوا فيها أن تتزوج؛ لتعيل نفسها على الأقل، وكان الوقت والأفكار قد تغيرت قليلا لسنح لها هذه الفرصة الضئيلة في مواجهة الحياة.

كان ما يعذبها هو الشعور بالذنب، فقد كانت نادية محاطة بسياج متين من التخطئة والشعور بالذنب حتى وهي ماتزال صغيرة لا تعرف ما هو الخطأ بالضبط الذي ارتكبته لكنه شعور عميق بكونها والنساء مسؤولات عن آثام البشرية ووقود للجحيم وسبب في لعنة آدم وخروجه من الجنة حتى أنها اعتادت على

الاستغفار طوال فترة صمتها أو كلما دهمتها فكـــرة جريئـــة أو كلما سمعت عن قصة آثمة لامرأة تعرفها، وكم قطعـــت علـــى اخواتها أو المتحدثات في زفاف أو عشاء حـــديثهن لتـــذكرهن بكفارة المجلس ولتتدارك سخريتها من وجـــه وشـــفة احـــدى الفنانات، بل إنها كانت تصلي وتبتهل أن يغفر لها الله أشـــياء لم تفعلها قط، ويغفر لها عملها في الاستقبال وتعتقد أنه لابـــد أن تتركه في أسرع وقت، ولا تسنى انها استغفرت مئات المرات عن زميلتها في العمل لأنها وصفت واعظاً كبيرا ومشهوراً بأنه منافق وظنت أن الله سيسخط عليها لو جلست بجانبها بقيـــة اليـــوم، وكانت تبرر كل ما حصل لها بأنه عقاب إلهي، وأن الله زرع في قلبه بغضها بعد أن كان يحبها في الهاتف لأنها ارتكبت خطيئـــة، وتالياً كانت تعزو كل مرض أو غم أو مشاكل في العمل لغضب السماء، وأنها لن تنجو من فعلتها أبداً.

تكوّرت على بعضها مزيحة عن نظرها سأم الباب المغلق في وجهها، وضاربة في صخرة ذاتها المتحجرة، غاضـــبة بخـــوف، وحزينة بإشفاق، وشاتمة في صمت.

لا تملك نادية طريقة لمجابهة ما يعجزها من تعقيد سوى هذا التكور على بعضها، الركبتين في أعلى البطن واليدين تطوقهمـــا والرأس إلى أسفل، وتبقى هكذا حتى يدهمها النوم، لقد وصلت لمرحلة تعتقد فيها أن الحياة شيء لا يخصها وليس لها فيهـــا أي

شيء، كانت تتآلف كثيرا مع فكرة الشهادة، وكم تعذبت من فكرة أنها امرأة ولا تستطيع الذهاب لقتال الكفار في العالم، إن تلك الفكرة من الجاذبية والتعويض أنها جعلتها تتخيل في بعض المرات أنها تحولت لرجل، وكانت تتخيل لليال كاملة كيف كانت تقاتل وتُجرح، وكيف أنها أصبحت بطلة وعلقوا صورتها كمناضلة ضد الكفر في كل الشوارع، شيء فيها منهزم غائر القهر كان يزين لها تلك الخيالات، وكثيرا أسعدتها وجعلتها تتجاوز ليلة صعبة، في وقت لاحق أصبحت تتصالح مع فكرة شهيدة امرأة وكم تمنت لو أن شيئاً سحرياً ينقلها لتموت في الجهاد.

لكنها الليلة محاطة بموت حقيقي يسوره يأس ووحدة فظيعة، وذاكرة تحشد الوجوه في رأسها وتجعلها تقف بشكل جلي على تعلقها بالنجاة، في هلعها من الموت بهذه الطريقة في صمت وبطء وبعيدا عن كل شيء تعرفه، إننا لا نشعر بخسارة الحياة إلا أمام الموت، ومهما كانت حياتنا بائسة ومملة وعادية فإن العودة للحياة هو كل ما سنختاره لو وسعنا الاختيار.

لقد وقفت نادية بشكل لا تعيه بدقة على فداحة حياتها، وتردد عمرها في خاطرها طويلاً، وشعرت أنها تغيب في داخل كهف سحيق طوال حياتها، وأنها لطالما عاشت محاطة بالشك والتخوين والخوف منها لا عليها، ولطالما كانت أمنياتها

مقصوصة ومشوهة وسعادتها مبتورة وغير مكتملة، وكانت هي نفسها قد تعودت على هذا فصارت تصنع أحلامـــا وأمنيـــات بمقاس هذه التربية، وتمارس الوعظ والتشنيع أحياناً على من تتعداه من أخواتها وبنات الجيران.

لقد كبر غضب أبكم في داخلها، كانت تكره كـــل هـــذا لكنها لا تستطيع ادانته، لأنها تؤمن أن هذا اعتراض علـــى ارادة السماء وطغيان على النصوص المقدسة والأولياء الصالحين، وكل ما هو حرام فهو حرام فعلاً، وكل ما يقولون بأنه حلال فهـــو حلال وحين يتداركون ويحرمونه فهو حرام، ومع الوقت تحـــوّل غضبها الثقيل داخلها إلى قوة متسلطة على من حولها في التدقيق والتمحيص على صلاتهم واستغفارهم ووضوئهم، بل إنها كانت تتهم احدى أخواتها بالنفاق لأنها لا تسبغ الوضوء على قدميها، وكانت تطالب أخوها – الذي يزورهم من وقت للآخر ليفكر في فتيات تعرضهن أمه للزواج وفي كل مرة يكتشف أنه تعـــارك مع أخو هذه أو يكره أبي تلك – أن يُسكت المذياع أثناء تقديم الأخبار في احدى القنوات الاذاعية بســـيارته لأنـــه تتخللـــها موسيقى.

وحتى حين أصبحت نادية تملك هاتفا ذكيا وتفتـــتح لهـــا حساباً في كل مواقع التواصل والاعلام الجديد فقـــد أزعجهـــا وزلزل روحها انحلال العالم كما تراه، وعلى الرغم من كونهـــا

كانت تقضي فيه كل ساعات فراغها إلا أنها كانت تحتسب على الجميع، وتستغفر عن كل ما هو خارج عن رؤيتها للوجود، وتدافع عن الرموز، إذ تشعر باستمرار أن العالم كبير ولا يمكنها فهمه لكن تمسكها بالولاء والتصديق لهؤلاء الذي تُكبرهم كفيل بإبقائها في دائرة الأمان.

كانت تفزعها بعض الحسابات أو الأسئلة أو الكشف لما خلف الكواليس، لكنها تعود فتكذب كل شيء وتصدق فكرتها الوادعة، ورغبتها في أن يكون لعجزها وخوفها قائد ومعلم.

كان للغرفة نافذة بقضبان من الحديد، ولكنها تطل على جدار مصمت ومتين، ولذلك فقد كانت النافذة في حد ذاتها سخرية لا تقل اضحاكاً عن مزلاج الباب، وقفت بها وهي تنظر بحزن متغلغل إلى الجدار، وكيف يمكن لأحد أن يفتح نافذة على جدار؟!، كيف فكّر صاحب هذه البناية الغريبة، وهل بنى الجدار أولاً أم النافذة؟!، كان يبدو أن الجدار يصفع قلبها وترتج له روحها فتتشبث بالقضبان أكثر، وتصلي من أجل معجزة أو زلزال.

لقد كانت نادية من هذا النوع الذي يرمي ثقله على المعجزات، ويُسبّح ببهجة لأن صدفة ما توافق حدسه وخياله وما يؤمن به، حين وجدت نفسها لا تستطيع عمل شيء ولا اتخاذ قرار في حياتها فقد تعاملت مع هذا بالتجاهل؛ تجاهل حياتها

وكأنها تحدث لشخص آخر، وتجاهل أمنياتها، وتجاهل عيوبها وجهلها وسمنتها، وعنوستها وكأنها ستحلّ نفسها فجأة يوماً ما، لقد وصلت لهذه المرحلة التي يبرد فيها صوت النفس ويتجمد تحت عصف مكرّس من الوصاية المنظمة المتواطئة من البيت وحتى الجامعة والشارع ومؤسسات السلطة والقضاء، لقد صارت تهاجم مع الوقت النساء اللاتي يخرجن عن هذا الطابور النسائي الخاشع، وتمقتهن، وتتمنى لو قتلتهن بيدها.

تضوّر صوت في داخلها للنجاة، وانقبض صدرها من رعب الجوع والعطش، وبدأ جسدها يختبر سجنها بطريقته، لكنها ورغم هذا الهول المتوحش للفكرة إلا أنها غرقت في فكرة واحدة هي أن تتجاهل هذا المصير كما تجاهلت حياتها، دون أن تقوم بأي شيء، ودون أن تفكّر في مجرد دق الباب أو احداث ضجة عند النافذة، اذ سُرعان ما طوّقها خوف من أن يكتشف رجل غريب وجودها وحدها ويستغل ذلك للاعتداء عليها.

إن الحياة لا تبدأ إلا إذا خرجت من البيت وجابهت الريح وجُرحت وجَرحت، أما إذا قبعت داخله فإن ذلك يشبه التذكر؛ وهكذا كانت حياة نادية تذكر طويل لأشياء لا تستحق الذكرى، لقد كانت مجرد فكرة يتذكرها مراراً بنفس الطريقة معتوه في مصحة، بيت من فوقه بيت، وسقف من فوقه سقف.

محبوسة في حنجرتها تعالج الكلمات قبل أن تقولها حتى تنساها، وكم كانت تعجزها اللغة وتعيا عليها المعاني تتذكر هذا وهي تحاول كتابة رسالة أخيرة لناصر هي التي لم تقرأ في حياتها كتاباً سوى كتب المدرسة، ولم تعارض في حياتها رأياً سوى رأيها، ولم تغادر في حياتها مدينتها، تكتب رسالة حب، ابتدأتها بنقطة ظلت تضغط على القلم في انتظار فكرة لكنها اكتشفت أن النقطة السوداء كبُرت ولطخت الصفحة فتخلت عن الفكرة بأسرها.

عادت فتقرفصت على السرير وتنامى سخط عظيم في نفسها على كل شيء، لقد أرادت أن تصرخ لكنها خجلت من ذلك كثيراً، فقد اعتادت أنه لا يكبر صوت امرأة في بيتهم أو بيوت الجيران إلا وتكون الكلمة الحاضرة هي فضيحة "امرأة مجنونة أو قليلة أدب"، كم خافت على احدى أخواتها التي كانت تبكي بصوت مرتفع وهي تشكو لأخوتها زوجها الذي ضربها وأخرجها في الشارع في مدينة لا أحد لها فيها، وحرمها من أطفالها لأشهر حتى عادت له، كانت الكلمة الوحيدة الحاضرة "اخفضي صوتك فضحتينا من الناس"، تجذرت كلمة فضيحة في كل الجدران المحيطة بها، حتى صار وجودها بحد ذاته يشعرها أنه فضيحة ما، وكم كانت تخجل من جسدها فلم يسبق لها أن تعرت حتى لوحدها فهي تصدق أن التعري يجلب الشياطين،

وكانت تحفظ وصية احدى الواعظات أن الواجب أن يتغطى حتى الزوجين أثناء علاقتهما لأن ذلك من السنة، وكانت في الاستحمام تغتسل سريعا وهي محاطة باحتمال الفضيحة التي قد تقع في أي وقت وكانت تجعل ملابسها قريبة منها في كل مرة.

إنها لا تصدق بعد أن الحب جردها من ذلك الخوف للحظات، الحب الذي شعرت به في قلبها كان يائساً بقدر ما كان صادقا وعميقاً وحريقاً مضرمة في حقل من القش، لقد كانت في سبيله مستعدة لخيانة كل شيء تعرفه، كانت مستعدة لمحاربة العالم من أجله، لكنه خذلها بعنف، ولم يكن جديداً عليها أن تنهزم، كان جديداً عليها أن تقاوم، فقد استماتت في استعادة الرجل الوحيد الذي التفت إليها، لأنه كل ما تراه وكل ما تعرفه وكل ما تصل إليه، لقد كان عقدها التي تعقدها حولها أكثر لتواجه هشاشة حياتها.

كانت تشعر وهي تتحرك في غرفتها أنها تجر خلفها آلاف النساءِ الساكتات، يرتدين ثوباً واحداً ويبكين ويقطّعن أيديهن، ولم تكن لتقودهن إلى أي مكان بل كانت تجلس وتنتظر، فهي لا تعرف أي طريق، والطرق لا تنادي أحداً، ولا تسحب القاعدين، وكان هذا يناسبها، يناسب فكرتها عن الصبر والقناعة.

جفّ جلدها من العطش وتشققت شفتاها في الليل الأول، وخيّم عليها الحزن وشعرت برأسها يفرغ وتقرع فيه الوساوس

والمخاوف، حاولت أن تجد بين أغراضها ما يروي ظمأها لكن عبثاً أهدرت ما بقي من طاقتها في البكاء والدوران في أركان الغرفة، و لم ينفجر تحتها نبع ولا انشق السقف عن غيمة.

أعياها التعب وخارت قواها وتلوى بطنها من الجوع، فغمرها خدر ثقيل واستسلمت للنوم أخيراً كان الليل قد انتصف و لم تكن تملك ساعة لتعرف الوقت، فقد تشابه عندها الليل والنهار، والنور والظلام، والخيال والواقع، وفي لجة الرجاء نامت كما لو أنها لم تولد أبداً.

رأت أنها تطيح من سفح جبل ولا تصل إلى الوادي ولا ترتطم بشيء، وكانت تحاول الطيران لكنها بلا أجنحة، تكسرت أضلعها وانسحق رأسها من صخور الهاوية، استجمعت قواها لتتنفس وأفاقت فزعة تستعيذ من منامها، وانتبهت إلى الباب من جديد، طوقها جزع كامد وجعلها مستكينة كقربان على المذبح، وبصمتٍ مطبق بلعت غصتها، وحفرت رأسها في الوسادة، وعقدت قبضتيها بشدّة، وصالبت فكيّها، وغلّقت جفنيها بنفاذ صبر، وأنّت كبومة حتى عاودها النوم.

الفصل الثاني

كان شيء يضيع، دائماً كان شيء يضيع بحسرة؛ هذا ما كان يتسلط على نادية في أوقات وحدتها، شيء لا تستطيع تفسيره لكنها تتمرغ في حسرته، جمعت له كل أدعية الغم والكرب، واستحضرت من أجله قصة يونس في بطن الحوت، مسافة بعيدة بينها وبين العالم والآخرين، خرس ليس له كلمات ولا تقاسيم، جور يجثم في روحها فتتضبب منه الصور والمشاعر والحياة فلا تكاد تراها، تشعر أنها تتحرك ببطء شديد، تتحرك بين غرفتها والصالون والمطبخ طوال سنوات كانت هذه المسافة المتاحة لها من الوجود، تخرجت من قسم الدراسات الاسلامية بتقدير منخفض، ولم تكن تطمح في دراستها لشيء محدد بل كانت تدرس كما يفعل الجميع من حولها، حفظت كل زاوية ولون وزينة في البيت، نظفته يوميا بيسر وبجهد في الأعياد حين يتقاطر إخوتها من كل المدن بأولادهم لزيارة والديهم، وقفت في كل الأفراح والأحزان العائلية لتعمل وتضحك، كانت تُعامل

كشيء لا يتغير ولا يغضب ولا يحزن ولا يعترض وليس لديه شيء ليضيفه أو يقوله من الأساس، وكانت تخدم الجميع بيقين من هذا مصيره للأبد، تجرحها بعض الكلمات وتؤذيها زيادة الأعباء في المناسبات لكنها لم تكن تعترض أبداً، مع الوقت لم يكن يُنظر إليها كامرأة تماماً، بل كانت زينتها في صبيحة العيد لا تسلم من تعليقات أخواتها واخوتها وزوجاتهم، مع أنها كانت تشد حزام هذه أو تزين شعر هذه أو تحمم الصغار وتثني عليهم وتسعد بأناقتهم، وتصورهم كثيرا في هاتفها المحمول.

من وقت للآخر كانت تزورها بنات الجيران اللاتي تزوجن لاحقا و لم يعد هناك سواها مع كبار السن في تلك البيوت التي تقلصت عن بنيها ساعين خلف رزقهم، وبدت بعدهم كأنها جسد عجوز متجعّد وباهت ويثير في النفس الوحشة، وكم صلّت ليكون نصيبها كحصة ابنة الجيران وزميلة الدراسة التي تزوجها رجل يدرس في أمريكا، بعد سنة وفي احدى اجازاته زارت حصة أهلها وحين جلست مع نادية وحكت بانبهار عن أمريكا وعن الحياة هناك وكان أول سؤال سألتها نادية هل كشفتِ وجهك؟، كيف تشعرين أمام النساء المتعريات؟ هل ضاع زوجك منك؟ هل ينظر إليهن في وجودك؟ طمأنتها حصة أن نقابها هو الشيء الذي لن تسمح بأن تغيره، وأن كل جاراتها ومعارفها هناك يرتدين النقاب ومن قبيلتها

الكثير، وكأنها في بلدها، كانت حصة قد تغـيرت كـثيراً، أو شعرت نادية وحدها أنها بدت أجمل واكثر طلاقة، كان شـيء فيها يفضل أن يعطي تصورات وصفات أفضل للذين يتزوجـون أو يسافرون.

وفي الليل قبل أن تنام فكرت في كلامها كثيراً شعرت بغيرة مغتاظة لو أن حصة تكذب عليها وتكشف وجهها هناك لقـد فكرت أنها من المؤكد أنها تكشف وجهها وأن حصة لم تكـن تحافظ على صلاتها ولا تتوقف عن الغيبة، وتخيلت أنها مكانهـا بالفعل وطاف بها خيالها في كل الأفـلام الأمريكيـة والحيـاة الأمريكية التي تعرفها، كانت تخفّ روحها وتنتشي ببهجة غامرة ولطيفة تجمعها من كل خاطر ممكن وتأخذها لنفسها كلّها، ولم يكن في خيالها حجاب أبداً وكانت تتوقف بين الفينة والأخرى لتبرر لنفسها هذا الجموح في أنها تعرف نفسها وأنها امرأة متدينة ولن تُغوى بسهولة، تخيلت نفسها تذهب إلى الحفلات وتتبضـع في الأسواق ولا تتوقف عن الرحلات وتتحدث مع الرجال بحرية وتمسك أيديهم وتثير اعجابهم، حتى إنها غيرت اسمها وهيأتهـا في حمأة التخيّل دون أن تشعر، لكنها وبعد أن تحط في غرفتها وتنتبه أخيراً تحسد حصة بشدة وتفكر أن زوجها سيطلقها، وتختم هذا التأجج كله بأن هذه جنتهم في الدنيا، الكفار الـذين أرضـهم خضراء وشلالاتهم متدفقة وحياتهم حرة ولا يخافون من المعاصي

هذه جنتهم في الدنيا، وغسلت خاطرها صورتهم وهم يتعـــذبون بالآلاف في الجحيم، ويتقلبون فيه إلى الأبد.

ولوهلة خطر لها أول موقف تسمع فيه صوت رجـــل غـــير اخوتها وكانت في المرحلة الثانوية، كانت هي وأختها تنظفان غرفة والدهنّ وكان في الخارج يؤدي صلاة العشاء ورنّ الهاتف وبفرح كانتا تختصمان على من ترد عليه أولاً وسيقنعن والدهن بعـــد أن ينادين على أمهن بأنها هي التي ردت فقد رجحتا فوراً أنها خالتهن أو احدى الجارات كالعادة لكن وقع استقبال مكالمة كـــان لـــه سحره في نفوسهن اذ لم يسبق أن سُمح لهن بمسك الهاتف سوى في وجود والدهن، ويجب أن يكون الكلام كله بصوت مرتفـــع ومن تهمس فإنها تعرض نفسها للشك ووابل من الشتائم، فـــازت أختها بالرهان بعد أن قبضت على السماعة أسرع وكانت تغالب يد نادية التي تشدّ منها السماعة وتحاول الانتباه للمتصل بـــذات الوقت، لكنّ لونها امتقع واحمرّت أذناها وأنزلت السماعة كاتمـــة عليها بقبضتها، وتهتزّ وتقفز في الغرفة وتقول: واحد واحد!

بعينينِ منفرجتين ويدين تضغطهما بخوف على فمها همست نادية: واحد مين؟

عادت صالحة تتأكد من كتمها للصوت وتكتم ضـــحكة عنيفة وانفعالاً هائجاً وتقول: مدري شكله غلطان يقول هـــذا بيت أبو أحمد؟

لكزتها نادية على كتفها وغمزتهما حماسة مشوشة ومحمومة وبدائية وكانت صالحة لا تتوقف عن الضحك بهستيريا وخجلٍ متضارب، رجتها نادية أن تعطيها السماعة لتسمع صوته هي أيضا، قالت: بقول له انت غلطان بس بالله عليك أعطيني السماعة.

لكن صالحة استجمعت حماستها واندفاعها واضعة السماعة على أذنها وهتفت: انت علطان يا حيوان يا كلب لا تتصل على هذا الرقم مرة ثانية، ثم تعتصر ملامحها اندهاشاً وضحكا وهي تسمعه يحاول اطالة الكلام معها.

فتنتزع نادية السماعة منها وتندفع: هذا مو بيت أبو أحمد انت مين؟

شعر المتصل بهذه الجلبة الغوغائية وتفاعل فورا مع الشتائم بطريقته فرد على نادية بكلمات اباحية وسمّى الأشياء بأسمائها وبينما هي تسمع كانت تلطم وجهها بكفّها حتّى احمر وهي تقول: الله يلعنك يا قليل الأدب يا نعال يا كلب يا حمار، وبكل قوتها هوت بالسماعة في مكانها!.

والتفتت لصالحة التي كانت غارقة في الضحك والخوف والدهشة وتبرق في عينها دمعة رقيقة، وبدأن يلمن بعضهن على ما جرى ولا يملكن أدنى فكرة لماذا هاجمنه بهذا الشكل، ولا لماذا شتمهن بتلك الكلمات، وفكرن كيف لو كان واحدا من

معارف والدهن؟ وكيف سيبررن ما حصل؟ وماذا لو كان أحد اخوتهن يختبرهنّ ويغيّر صوته؟ تتذكر أنهـــن قضـــين ليلتـــهن في الاحتمالات وكلما نادى والدهن احداهن لتجلب له الشاي أو الماء أو تفتح الباب فقد كنّ يمتقعن خوفاً ويتفاهمن بعيونهن ظنـــا أنه افتضح أمرهن، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل ومرت السنوات الطوال لتكون صالحة زوجة لابن عمتها الذي يضربها في الليـــل والنهار، ونادية تمتلك هاتفاً ذكياً تتعارك في مواقعه للتواصل مع الرجال والنساء مدافعة مرة عن السنة ومحذرة من خطر الشـــيعة وأنهم أخطر من اليهود والنصارى، ومرة عن رفضها لقيادة المرأة للسيارة ومرة للشماتة بالنساء المتحرش بهنّ ووصفهن بالعاهرات، لقد كانت نادية مخلصة لقضاياها ومتفانية في الشتم والتخـــوين والتكفير في سبيلها، كان الأخيار واضحون ومحـــددون تمامـــا بالنسبة لها وكان الخير والشر له معيار واحد وسلوك واحد وهيئة واحدة آمنت بها أكثر من أي شيء.

دعك جسدها تعب طقطقت له مفاصلها، وبصعوبة فتحت عينيها كأنما مرّت بكابوس فظيع وليلة من ليالي الشـــتاء الـــتي يدهمها فيها كثيراً الحزن والجاثوم والسأم، فركت وجهها لتحرك الدم فيه والتفتت للباب لتتذكر ما جرى لها بـــالأمس، وأنهـــا محبوسة بالفعل وليس كابوساً، بصعوبة جلست على ســـريرها وكان يخدش حلقها عطش رهيب، استعادت ما رأته في المنـــام

وكم طاردها وحوش ترتدي وجوهاً تعرفها وسرعان ما تتحول لثعبان أو عقرب، وكم جرت منها في كل الاتجاهات دون جدوى فقط كانت ترى أنها تصبح فجأة بلا قدمين أو أنها ترتد من جدار طويل أو تسقط في حفرة وتصل إليها تلك العقارب وتلسعها وتدميها، وفكرت أنه ينبغي أن تكتب منامها لأحد المفسرين الذين تملأ أرقامهم هاتفها، فقد قضت وقتاً طويلاً من عمرها تكره احدى أخواتها لأن المفسر قال لها عن منام رأتها فيه أنها عدو وأصابتها بعين شيطانية ومنذ ذلك اليوم وهي تفسر كل أحلامها وتكتبها باستمرار لأكثر من مفسر وتقيّم خطواتها وحياتها على ما يفسرونه لها، وكم كانت تسعد حين يفسرون لها مناماً بأنها ستتزوج قريبا وقد كان ذلك يتكرر دون أن تتزوج أو تتوقف مناماتها أو أرقام المفسرين بهاتفها، وهجست لابد أنها محاطة بالأعداء فالثعابين والعقارب أعداء يتربصون بها ولوهلة كرهت كل الناس وكل أهلها، لكنها عادت فتذكرت بخيبة كبيرة كيف أن هاتفها قد انتهت بطاريته، وأنها وحيدة معزولة وبعيدة ويمكن أن تموت جوعا وعطشاً وهي تفكر في تفسير منام.

هرعت قائمة كما لو أنها ملسوعة بالفعل واتجهت بكل قوتها للباب لكنها خارت قبله وخافت على عظامها أن تتكسر، وعادت للنافذة فوقف الجدار في وجهها كأنما ضَرب للتو، وبحثت في الغرفة عن طعام أو شيء تشربه دون جدوى، تملّكها

اليأس وجلست في منتصف الغرفة بهدوء وراحت تأكل أظافرها وهي تدفن رأسها بين ركبتيها، وتتمنى أن يحدث شيء إما تعود احدى جاراتها صدفة، أو تفتقدها أمها فتتصل بها، ويأخذها الخوف أن تقطع مسافة طويلة للاطمئنان عليها، أو حتى ناصر يجيء به القدر لينقذها دون أن يخطط لهذا.

مدت ساقيها وتأملت أصابع رجليها، ذهلت للحظة من شعر ساقيها مع أنها تراه دائماً، وتخيلت أن الموت يزحف ببطء تخيلته ذو لون أسود يلتهم اصبع قدمها الكبرى ثم يزحف شيئاً فشيئاً إلى ركبتيها، هالتها الفكرة فقبضت ساقيها سريعا وتكورت على نفسها من جديد وغرقت في بكاء مُر.

ابتعلت دموعها ومخاطها من العطش وتعسّرت نفسها من ملوحته، وسرى في أسفل بطنها وجع خادر فشعرت بامتلاء مثانتها، وقفت باحثة عن اناء أو شيء يصلح لتتبول فيه، وأخرجت الأدراج بتوتر وعجلة نثرت ما فيها وعيناها مشوشتان بالدموع والإعياء، وجدت علبة حلوى بلاستيكية فارغة، غمرت نفسها بثوبها ووضعت العلبة تحتها وتبولت فيها، ثم غطتها بكتاب كانت قد حملته معها من بقايا دراستها، حتى لا تفوح رائحته، فيتأذى من يدخل عليها لإنقاذها ولا تشعر بالحرج، وفكرت كم هو منتن الرائحة، لكنها شمّتها حتى اعتادت عليها وصارت جزءاً من هواء الغرفة.

وفكرت ما الذي يذكرها به البول بهذه الطريقة، وعادت بها الذاكرة للخامسة من عمرها حين كانت تلعب مع بنات الجيران فتحدين بعضهن من تبول أطول على التراب الذي تشع فيه شمس الظهيرة فيلمع كأنه زجاج، ولكنها لم تكد تعرف من فـــاز في ذلك السباق حتى سحبتها أمها وجارتهم وعاقبوهن عقاباً قاسياً لأن جارهم الذي رآهن صرخ في النساء وفسّر هذا على أنه بداية للعهر وكم سمعت هذه الكلمات من أمها وجارتهم وهن يتعاقبن على ظربهن وثم حبسهن في قبو تحت الدرج، وكم سألت فاطمة وحصة ما معنى كل هذا الضرب وما تعنيه هذه الكلمات وهـــل غضب الله منهن فعلاً وسيحرقهن في النار؟، تتذكر نادية أنها بعد خروجها من ذلك القبو لم تتبول بسهولة لأشهر فقد صـــارت تخاف منه وتبكي وتشعر أنها مذنبة.

ضحكت بقهر وغضب، فهي لا تتذكر شيئاً يسعدها، وكم تمنت أن تحمل رأسها وتقذف به في أحد الجدران فيتناثر وينتهي كل ما تعرفه عن حياتها وواقعها وتربيتها وسوء حظها وعجزها عن كل شيء.

كانت تشعر أنها تمشي دائماً في ذات الاتجـــاه، وتصـــطدم دائماً بذات الحاجز، تكرر هذا طوال سبعة وثلاثين سنة واليأس يطحن قلبها، فتغزو رأسها الشعرات البيضاء التي تخاف أمام المرآة من اقتلاعها لأنها ستتكاثر كما تعتقد، كانت تتقبل كل شـــيء

يحدث بهدوء واستماتة، تضغط على فكيها وتبتلع غصتها ويتقوس صدرها عن تنهيدة تزفرها ببطء وينتهي كل شيء.

عصف جوع بطنها، وضغطت بيديها عليه، فهذا الجسد هو كل ما تعرفه وما تملكه وما تعوّل عليه، وهو طريقتها الوحيدة في الوجود والشعور والفهم، تعلمت كيف تشبعه في الوقت الذي تعلمت فيه المشي والكلام، وعاش شبعاً متخماً، كقطّ أليف نسي مع الوقت كيف يُطارد الحشرات والفئران، ونسي حتى صوته، وانغرست أظفاره في لحمه، ناكصة إلى الوراء وصارت توجعه هو ولا يملك بعد طريقة لإخراجها من اللحم.

كان الإعياء يجعلها تشتبه الخيال بالواقع وترى نساء بلا ملامح واضحة وبعيون معصوبة يخرجن عليها من الجدران، رأت أمها وأخواتها وقريباتها وزميلاتها في العمل والدراسة وجاراتها وحشد آخر لا تمييزه لكنه يشبه بعضه وبدأن يزاحمنها في تلك الغرفة الضيقة ويجلس بعضهن على بعض وتتكسر ضلوعهن من الضيق فيقتتلن ويشوهن وجوه بعضهن من الضجر فتقف بعضهن على جثث من قتلنهنّ وكان هذا يرعبها وتود لو مدت يدها فمنعت هذا لكن يديها كانتا ملتصقتين بها من دفع أجساد نساء أخريات يطوقنها من كل اتجاه فتختنق، تتنفس بصعوبة بالغة، ووجدت نفسها تخربش وجوههن هي الأخرى وتدافع عن نفسها الأخير بالصعود باتجاه حيز الهواء على أرجل وبطون

وأرداف لا تعرف من تخص فقد كان النحيب والأنين والصراخ المحموم عالياً وكانت الأجساد تتداخل في بعضها في مشهد مقزز ومخيف في آن معاً.

شعرت نادية بأن فرصتها في النجاة بدأت تتدهور، وأنه لم يبقَ الكثير لتكون مدهوسة تحت الأقدام، وانتبهت للفراغ تحت السرير، وكم كانت سعادتها حين لمحته، وعانت الكثير من الدفع والصراع حتى تقلبت داخلةً تحته ومطلقة أنفاسها في تسارع وذهول، لقد نجت!.

صعقت نادية من هذه المسافة الواسعة تحت السرير، وراحت تتقلب فيها بجذل وبراعة وللمرة الأولى في حياتها تشعر أنها ذكية، لقد صاح فيها صوت رعوي لم تميزه في البداية، وهناك تنفست بحرارة وأطلقت التنهدات وخلعت كل ملابسها، حيث شعرت أن الجو بات خانقا وأن حرارة الغرفة ترتفع، لقد وجدت لها مكاناً هناك تحت السرير حيث تقبع الرغبات البشرية الأولى، والخيانات والشهوات والخيالات الماجنة والرجال المنهزمين أخيراً.

لقد جُنت من السعادة، وكان دمها حامياً تحمر منه أوداجها، وتشرئب لها رقبها فتمشقها في امتلاء وثقة، لقد كان أوسع مكان تحرزه وكانت مستعدة للموت في سبيل هذه الحيازة، وتشبثت فيه بكل ما تملك من أمل ويأس معاً، إنك لا

تعرف ما الذي يمكن أن يفعله انسان مسجون حين يجد منفـــذاً وتقاتله عليه، سيكون قتالاً على النجاة، صراعاً للبقاء، لن يكون هناك مجال للإنسانية ولا للأخلاق ولا للتفكير والتعقل، ستموت أو تُميت قبل أن تلوم أو تندم.

لقد قضت حياتها وهي تحاول تبرير وجودها كمن يدفع عنه ذنبا أو يعتذر عن خطأ لا يغتفر، شيء تربى في أعماقها أنها ناقصة في العقل والدين، أنها بكل الطرق الكبريت الذي يجاور البنزين، والعار المحتمل في أية لحظة، والجريمة التي تنتظر أن تقـــع، ولهـــذا تعودت بشكل لا تعيه مع الزمن على ابراز ضميرها كلما عنت لها فرصة، كانت تصلي في الصالون، وتستغفر بصوت مرتفع في اجتماعات العائلة، وتجعل الأدعية والابتهالات شـــعاراً لهـــا في برامج المحادثات بهاتفها، وتصوم الاثنين والخميس، كـــان فيهـــا صوت يريد أن يتوسل ليغفر له، يريد أن يدفع عنها هذه الريبـــة المواربة، يطمئن بها هذا الـــوحش الـــذي يطاردهـــا بـــالجحيم والنقصان، حتى صارت هي نفسها يديه ورجليه.

وهناك تحت السرير تذكرت كيف أنها لهثت وراء الحـــبّ حتى دميت قدماها، وانداح قلبها على الطرقات في ليالي الوحدة والذكريات والشوق والانتظار، وكيف دفعت بكل أحلامهـــا وثقتها وحياتها في سبيله، وأنها تخيلت لقاءها بناصر آلاف المرات، وكانت كل مرة تلتقيه بشكل مغاير، تخيلته يبحث عنها أيضـــا،

وتخيلته فقد رقمها و لم يكن متعمداً، وتخيلته استمات في تقبيلها وضمها حين التقيا صدفة، لم يبق مسلسل تركي لم تضع نفسها فيه، فقد أدمنت الدراما التركية وحفظت كل أسماء الممـــثلين، وعرفت كل أخبارهم، وكم وضعت نفسها مكان كل العشاق في العالم، لكنها لم تكن منهم، لم يكن نصيبها يكفي لهذا.

ووجدت نفسها تنتقم من هذا الطرد الجائر والمستمر لها من الحياة، فاصطنعت لها حسابا اباحيا تعرض نفسها فيه، وكم راقها اغواء الرجال وكم كرهت نفسها واشمأزت منها، واعجبت بها في ذات الوقت.

تتذكر كيف أنها كانت تختار كبار السن والأجانب مـــن مصر واليمن لأنهم أكثر من يقبل بها، وكيف تمرغت في الخوف والمرارات والمجازفة والغي والخجل، فلم تعد تتأثر حين تهـــان أو يخبرها أحد بعيوبها أو يسخر منها، بل صارت تشاركه في ذلك.

الفصل الثالث

إن المظلوم جزء من إرث الظالم، والضحية هي التي صنعت المجرم في النهاية، والكثرة الضعيفة التي يتسلق عليها البطل؛ أناس مثله يحبون، ويحلمون، ويتنفسون، وحده الإنسان الحقيقي يسمع صراخهم المكتوم تحت جهورية خطاب مَن سحقوهم، ويقرؤون حكاياتهم خلف أسطر وشعارات القتلة والمجرمين والظلمة، وإن الذين يكتبون التاريخ ويكررون الكذبات لتصير مع الوقت حقائق، قد صنعوا بهؤلاء قممهم التي صعدوا عليها ونعقوا بأول فضيلة.

وإن مجتمعاً تتعفن فيه نساؤه خلف القيود والضعف والقهر لن يكون رجاله سوى رجيع الجنس البشري، ولن يعرفوا الشجاعة ولا الرجولة، وسيكون طبيعيا أن يتمرغوا لقرون في وعثاء الاستبداد والقمع، دون أن يخطر لهم الرفض أو تعز عليهم نفوسهم أو يرفعوا رقابهم ليروا السماء.

وكم شعرت نادية أنها تحت، تحت في مكان لا تصله الشمس، فيتفاقم فيه العفن، وتتقرح فيه الجروح، وتُبتر فيه

الأطراف، وتتشوه فيه القلوب والوجوه، ويخبو فيه الغضب وكل صوت ويطرق الجميع للصوت الأعلى، ويخضعون حتى يصير الخضوع منقبة يفاخرون بعضهم بها، ويعرفون ذواتهم من خلالها، ولا يكادون يعرفون أنفسهم بدونها.

لطالما شعرت بهذه الخفة في نفسها، وكانت تتقوى عليها بالحفظ والتصديق الذي لا يخالطه شك لما يقوله الكبار أولئك الذين يحملون خريطة الجنة، وأولئك الذين يصافحونهم في النياشين والقصور والاستبداد.

وكثيرا ما وجدت نفسها تغتبط وتفخر بنفسها وهي تكاتبهم في مواقع التواصل التي يطرحون فيها أفكارهم، فتناديهم بسيدي وشيخي وأستاذي، وكان ذلك يجعلها تشعر بوجودها بشكل ما، كانت دائما تشعر أن الآخرين أفضل منها كل الآخرين الذين عرفتهم، وأما الذين يعظونها فقد كانت مستعدة لخدمتهم بجبهتها، خجل متواضع جاهل ومعقد يصنع فكرتها عنهم.

إن من يعيش حياته يعوزه النهار، ويشتاق حتى لمجرد المشي في الشارع منفرداً، أو سماع ورؤية الحياة التي يضحك فيها الناس من قلوبهم ويتواصلون ويتعاونون ويعملون معاً بدون شكوك أو جواسيس أو شياطين تكون ثالثهم ورابعهم، لن يكون انسانا يوما ولن يعيش كانسان، ولن يختبر مسؤوليته وأخلاقه، وحين

تسنح له فرصة واحدة للنفاذ من هذا الكبت القسري فسيكون أرعناً وهمجياً وخطيراً ومبالغاً ومأخوذاً للحظة بالتأكيد.

كان فقدان جسدها للسوائل واعياؤها يجعلانها تفقد عقلها، وشعرت بالحمى تفتت عزمها، ودارت في الغرفة كالمجنونة، ابتهلت وصلت حتى إنها كانت تداخل الكلمات في بعضها من فرط الحسرة والجفاف، دقّت برأسها في الجدران كما لو كانت تعتقد فعلاً أنها ستنجلي عن حديقة غناء، كان رأسها بتركيبته المادية أقوى عندها من كل فكرة داخله في ذلك الوقت، نادية التي فكّر عنها الجميع طوال حياتها لم يسعفها رأسها الآن بشيء غير أن تدفع به كقدّوم مثلوم حتى يدمى، أنت وبكت وسامها الحزن واليأس ورعب الموت شديد العذاب.

هوت بجسدها في ركن الغرفة، وغابت عن الوعي قليلاً، وتخيلت أنها تعبر نفقاً طويلاً لا نهاية له، وأنها تسمع أصواتاً في الخارج، تطلب منها أن تصبر وتحتسب وأن تكون مؤمنة فلا تجزع، وطالبتها أصوات أخرى بالحياء وأن تخفض صوتها لأن المرأة لا يليق بها أن تصرخ، وحكم عليها صوت أقوى أنها تعترض على إرادة الله وترغب في قلب ميزان الكون، وتكرر صوت واحد طويلاً أن ذلك كفارة لذنوبها التي لا حصر لها ولا عدد، فغفت وهي تلثم فمها وتتمتم بكلمات غير مفهومة.

شعرت أنها محتاجة للشمس وأن الوقت لابد أن يكون نهاراً، لأن النافذة تدخل ضوءاً كامداً وكئيباً لكنه ضـــوء في النهايـــة، يحجبه الجدار لكنه لا ينتصر عليه كلّه، ورفرت في روحها صورة النهار، شعرت أن جسدها لطالما كان رقيقاً خائراً منهزماً كأنما سُحب بعيداً عن الشمس بالقوة وإلى الأبد، وتذكرت كيف أن الطبيبة في كل مرة تجري فيها فحصاً تخبرها بالنقص الفظيع لديها في فيتامين دال، وتخيلت من عطشها للدفء بعد فورة الحمـــى وانخفاض حرارة جسدها بسرعة وارتجاف أحشائها، مطعونـــة بالبرد، أنها تقطف الشمس مـــن الســـماء وتقلبـــها في يـــدها، وأغمضت عينيها من جمال الخيال الذي منحها بعض التحســـن وتذكرت كم مرة كانت تعيد أغنية لجسي جي الـــتي غالبـــت نفسها كثيراً ألا تسمعها مرة أخرى، وكم راعت قلبها صـــورة الحديد والرصاص المصبوب في أذنها وهي تسمعها فتغلقها جافلة وتستغفر، كانت تعلق على الكثير من مقـــاطع الفيـــديو بـــأن تنصحهم بإزالة الموسيقى، وكانت تلعنهم أحيانـــا، وتضـــطرم الكراهية والمقت في نفسها حين يتحدث أحد عن الواعظ الذي أباح الموسيقى، فتصفه بأقذر الأوصاف وأنها لتتخيل أن الشياطين بقرون حمراء وأسنان حادة قافزة من أفواههم يحيطـــون بالعـــالم الذي تعرفه من كل اتجاه لو استهان النـــاس وسمعـــوا كلـــهم الموسيقى، وكم كانت تسر حين تجد كلمة اغنية فلان بـــدون

موسيقى، لكنها لا تنسى كم أعجبت بتلك المغنية وكم تأملت في نشاطها وتقليعاتها وجسدها ورقصها وثقتها كانت تشعر أنها الشخص الحي الوحيد في العالم في تلك اللحظة، وكم أبهرتها في تلك الأغنية بالذات "قطعة الدومينو" وهي تقول "اجعل عـــالمي صاخباً تحت الشمس" في تلك اللحظة بالذات تشعر أمامها أنهـــا كلها ليل، ليل صحراوي بهيم لا ضوء فيه ولا بشر، غـــارقٌ في الخجل والشفقة، موحش ومتسع ومتوالد ولا ينتهي.

تساءلت بجرأة عن مصيرها، وجرها الاختناق لأفكار أقسى ألا تنتظر الموت وأن تضع حدا لعذابها وتنتحر، لكنها لم تكـــن تقوى على ذلك، لقد تعودت أن يأتي كل شيء بنفسه إليهـــا ثم تجرعه أو تتقبله أو تبرره بعد أن يكون واقعها، وأن ترضى به في الأخير، عاشت على الدوام بيقين من يأتي لإنقاذها، بأن يكـــون دائماً أحداً سواها، راعتها تلك الأفكار وأقامتـــها وأجلســـتها مخمورة بالحمى من جديد، رأت أنه من الأسلم أن تتبع الطريقة الوحيدة التي عرفتها في بيتهم، تجاهل المشاكل والتظاهر أن كل شيء بخير، حتى تصبح المشكلة جزءا من روحهـــا وحقيقتـــها، تتآلف معها، وتصير هي الوضع الطبيعي، تذكرت كيـــف أنهـــا هرعت وهي طفلة من صراخ أحـــد أخوتهـــا الـــذي تعـــرض لاغتصاب قاس من أبناء الجيران وأحد إخوته، وكيـــف أنهـــا لم تفهم هذا الذي حصل سوى بالصدفة وبعد عشرين سنة، عندما

كانت أمها تعاتب أحد أبنائها وتصفه بالمخنث، وأن من اعتدى على أخوه سيعتدي على كل شيء، تذكرت كيف أحاط أبوها وإخوتها به وجروه إلى غرفة كأنه هو المجرم لا الضحية وكيف مكث أياماً لا يتحدث مع أحد، وتتولى أمها اطعامه وتحميمه، وأن تلك الطريقة وحدها كانت المشروعة في التعامل مع ما يخرق جدار الصمت من العيب والحرام، وأن حفظ سمعة العائلة وثقة المجتمع والولاء له أهم وأولى من الجميع، بل إنها أحياناً تقدم هذه الارواح كقرابين للرضا والانتماء إذا لزم الأمر.

وتعجبت كيف أن أمها التي كانت طوال عمرها أقوى من أبيها الذي عضه المرض فاستكان وانخذل في ركن البيت كدجاجة مسلوخة، متفاقماً يزيد وزنه كل سنة، وهو يعيش ليراقب الحياة التي تديرها أمها من بعيد، كيف أن هذه القوة لم تكن مجدية لتتخذ أي ثقل لبناتها، وأنها مجرد وهم كابره جبن أبيها وتعود اخوتها على بر أمهم، حتى هي تذكر كم بقيت ليال بلا نوم لأن أمها دعت عليها بالسرطان، لأنها تشاهد المسلسلات وتترك الطعام يحترق والملابس بلا غسيل، وكانت هذه الفظائع الوحيدة التي يمكن أن ترتكبها آنذاك، لم تكن علاقاتهم قائمة على وعي كل واحد بمكانته بل كانت منقادة طائعة لفكرة الأسرة النمطية وجحيم عصيان الوالدين، ولم يكن أحد منهم ليجرؤ أن يقدح فيها أو يعترض عليها، كان المجتمع كله يعيش

معهم ويتخذ عنهم القرارات، بل تزوج كل أخوتها نساء اختارتهم أمها، وسموا أول أبنائهم جميعا باسمها وأبيهم، وهكذا كانت تدار حياتها معهم، ما يعتقده الجميع وما يريده الجميع، وما يعجب ويرضي ضمير الجميع.

إنها لا تستطيع مواجهة أي أمر أو الاجابة عن أي سؤال، فحتى عند الطبيب كان لابد أن يوصلها أحد أخوتها أو أبوها، وكان يسمع المشكلة منها ثم ينقلها نيابة عنها للطبيب، وهي تجلس وتريد أن تضيف أو تعقب على تفصيل أو فهم خاطئ لكنها لا تستطيع ذلك، وكان لابد أن يهلكها المرض ويصبح في مراحله الأخيرة ليشعر أهلها أنه ينبغي عليهم زيارة الطبيب، كانت محاطة دائماً بمن يراقبها في السوق وفي المدرسة وفي المسجد، حتى إنها شعرت بهذه المراقبة في هذه اللحظة التي تصارع فيها للبقاء، شعرت أنهم لا يمانعون موتها لكنهم يخافون من أن ترفع صوتها أو تجن أو تغادر الغرفة، كان هذا يوجعها في نفسها وهي تتفهمه بكل هذا الحياد في هذه الأيام، الموت قضاء وقدر لكن الحياة إرادة وقرار، ونادية كانت تعتقد أن ما تفعله طوال حياتها بالضرورة قضاء وقدر، وكان بالنسبة لها ميزان حسنات يزيد كلما سكتت أكثر، وكلما كانت طيبة ومطيعة.

تحشرج صوتها وهي تئن من العطش، شعرت أنها ابتلعت الجدران والغرفة كلها في حلقها فغصّت بها، راحت تتمتم

بتقطع، ويتردد في أذنها هذا الاشفاق المُبهم في اللالغة، كانت تواصل ذلك دون يأس أملاً في أن تقول ما تفكر به من خيالات وغضب، وأن تهتدي لكلمة تعبّر وتسمع وتريحها، لكنها اكتشفت مع مرور الساعات أن صوتها اختفى تماماً حتى ذلك الأنين لم تعد قادرة على احداثه، تحسست حلقها ووجدته صلباً كحجر، ولعقت شفتيها لترطبهما فآلمها كم تشققت وأخذ منهما الظمأ، تحسست كل مكان في جسدها بحثا عن أين اختبأ صوتها لتشحذه، كانت تشعر أنه نزل إلى بطنها، سمعت تلوي أمعائها وخلجات أحشائها فتيقنت أن صوتها تراجع إلى هناك، لقد كان كأنه مات ودفن هناك، وأنها صارت تابوتاً، وأنّ الظلام حلّ في هذه اللحظة ليعزيها هي بالذات، فانبجست عينها عن دمعة ساخنة، واتكأت على الجدار تمتص روحها الليل رويدا رويدا وترخي له عيونها وأملها، وتغيب في نوم ثقيل.

رأت أنها تمسك بقضبان النافذة فتكتشف أنها هشة مصنوعة من الفلين، كسّرتها بعقب كفها ذهاباً وجيئة وهي تضحك على نفسها، تمسكت بيدها ورفعت جسدها حتى صارت كلها على قاعدة النافذة وتأملت تحتها فوجدت كلاباً يتقاطر لعابها ولا تتوقف عن النباح، خافت وتراجعت لكن الكلاب فجأة تحولت لأرانب حطّت بينها، ودهست على بعضها فكان لها ضغيب

مستكين وكئيب، وراحت تركض ولا تنظر خلفها في اتجاه الباب الذي في نهاية المبنى يميناً، وخرجت منه للشارع وبدأت في الركض كانت تشعر أنها أسرع من نفسها، وأن العالم كله يراقبها ويطاردها، وأن ثمة شيء غريب لا شكل له لكنه كبير له صوت مرعب يهزّ الأرض وهو يجري خلفها لهثت من الخوف والتعب، كانت فكرتها الوحيدة هي الهرب وبأسرع وقت ممكن إلى أي مكان تسوقها إليها قدماها، واتكأت على جدار لترتاح فتهدّم وكاد أن يسقط عليها فهرعت للشارع من جديد وركضت دون هدى، رأت رجالاً كثيرين ونساء لا تعرفهم يطاردونها بالعصي والكلاليب والأسلحة والكتب والمشاعل التي تلتهب في رأسها النيران، يطاردونها في الشوارع وفي الأسواق وفي المستشفيات وفي المساجد، ولم تجد مكاناً ترتاح فيه، كلّما توقفت لتلتقط أنفاسها وتعرف ما الذي يجري وإلى أين يمكن أن تتجه كانت تضج نفسها ورأسها من الأصوات المنددة بها وبفعلتها، فيشرد بها الخوف كيفما اتفق، ولا تتوقف عن الهرب فتقوم كلما سقطت وتزحف حين تخور قدماها، شعرت أن جسما صلباً وحاداً هوى على رأسها من الخلف، فسقطت على الأرض وهي تشعر أن رأسها يُشقّ لنصفين، فانتبهت باكية من نومها، والرشح يغطي وجهها وتحسست مؤخرة رأسها وكان الصداع يرتج في عروق رقبتها بألم رهيب.

تذكرت كيف تحول التجاهل في بيتهم إلى صمت ممل وغريب، كان كل واحد يبدو أنه يحتفظ بهمومه ومشاكله ويبتسم أمام البقية ليبعدهم عنه بقدر الإمكان، وصاروا مع الوقت غيب بعضهم وسراً غامضاً لا أحد يعرفه فتصبح التكهنات هي الطريقة الوحيدة لفهم أي اختلال أو تغير مفاجئ في أحدهم، تتذكر كم بنَت في خيالها من تصورات عن أخوها الذي عاد من احدى المدن حيث يعمل ومكث عندهم ثلاثة أسابيع يزور المسجد كثيرا، ولا يتحدث مع أحد، فكرت أنه مصاب بمرض خطير، وفكرت أنه ارتكب جريمة، وسمعت تصورات من أمها أن ابنها مسحور أو أصابته عين شيطانية، ورأت أحدى جاراتهم أنه ربما أدمن المخدرات لأن وزنه تراجع بشكل مخيف، وكان الجميع يبني تكهناته دون أن يستطيع هو أن يتحدث معهم أو يتحدثوا معه، بعد فترة استعاد توازنه وضحكته، وبدأ يتحدث مع والديه عن الزواج، وسافر من جديد، تذكر كيف أنها دخلت عليه غرفته ثلاث مرات وهو يبكي دون أن تستطيع أن تقول أكثر من: هل تريد ماء؟، ما الذي تريده على العشاء اليوم؟ أعطني ملابسك المتسخة، لقد كان هناك مسافة بعيدة بينها وبين الذكور، مسافة مرهقة بينها وبين الكلام نفسه، حتى تعابير الملامح الانفعالية بدت مضحكة ومخجلة لها حتى تجمّد وجهها على انعقاد واضح بين الحاجبين

وبروز مزموم للفم بإطباق متكلف على أسنان حادة وبارزة وبدا أن هذا القالب غير قابل للتأثر بعد، بدت مع الوقت وكأنها تحولت لعلامة تعجب عملاقة يمكن وضعها في نهاية كل مصيبة ببساطة.

وحتى حين ولدت تتذكر أن أمها أخبرتها بأنها ظلت صامتة حتى ضربت الممرضة بضع ضربات على ظهرها فانفلق حلقها بالبكاء، تخيلت مع الوقت أن الحياة صارت يد تلك الممرضة وأنها هي نفس ذلك البكاء بلا زيادة.

استعانت بيديها ضاغطة على الأرض لتجلس، كان رأسها فارغاً يُسمع فيه جلبة أنفاسها بأنف مسدود وحلق ملتهب، وتأملت في يديها التي كانت تغطيهما الحروق والندوب من سكاكين ونار الطبخ، وفكرت أنها لم تكن تحب نفسها قط، لم تشعر بالشفقة عليها بل كانت تكرهها بجزع منفرط، وتشعر أنها شخص بعيد ومغاير وجاثم ليراقبها، كان حبها دائماً موجه إلى الصورة التي تتخيلها عن نفسها والتي تشعر أنها قد تأتي في يوم من الأيام لذلك لم تتصالح يوما مع هذه التي لديها ولم تنتبه لها، كان خجلها من جسدها يتضاعف منذ الطفولة وكلما وارته أكثر شعرت بالارتياح، حتى إنها نسيت كيف يبدو تماماً وعارياً، بل كان يفاجئها إذا ما صدف ومرت بجانب المرآة وهي ترتدي ملابسها صباحاً، لقد كان بالنسبة لها كائنا فاضحاً وإباحياً وقد

يفلت منها في تلك الحالة ويتمشى في الشوارع، كانت تشهق شهقة مسموعة وخاطفة كلما انتبهت فجأة أنه انكشف أثناء نومها أو غفلتها.

حين جلست ضغطت على ركبتها فشعرت بألم في عضلاتها، كشفت عنها فاكتشفت أنها متورمة تأخذ ضعف حجمها، وأن الجرح الذي أحدثته بها قد التهب وازرق الدم من حوله مكوناً رضة تغطي نصف ركبتها، وشعرت أنه يؤلمها ضعف ما كانت تشعر به وهي لا تراه، إن الجراح التي نخفيها في صدورنا أقل ضراوة من تلك التي تظهر للسطح وتهزمنا مرتين، مرة في عجزنا عن إخفائها، ومرة في تعريضها لنا لشفقة الآخرين واشمئزازهم، إنها طريقة الجسد في تقديمنا للعالم كجرح، يصلّون أمامه ألا يحدث لهم.

كانت ليلتها الثانية، لكن نادية لم تكن تشعر بالوقت، كان جسدها هو ساعتها الوحيدة التي تشعر بها وتتواصل بها مع الحياة، وكان جوعها وعطشها وإعياؤها هم الوقت التنازلي الذي يعد في خلاياها الآن، استجمعت قواها وقامت لكن رأسها دار في كل اتجاه وهوى بها في الأرض مرة أخرى، شعرت أن عظامها انسحقت تحت أقدام غول كبير، ، وأنها قزمة جداً بلا صوت ولا تُرى، شعرت أنها أضعف من نملة، وأن الغرفة تكبر وجدرانها تزداد متانة، وأن الأرض كلها مغلقة عليها مطبقة على أنفاسها،

سحبت أنفاسها بمشقة بالغة، وزحفت على بطنها في كل اتجاه، وكان لا شيء يتحرك من مكانه مع أنها زحفت لتثير مشاعره، تخيلت أن الماء يخرج من أرضية الغرفة الصلبة سحبت نفسها باتجاهه لاهثة، لكنه لم يكن شيء، وصلت إلى العلبة التي بالت فيها وفي لحظة يأسٍ مأساوية فتحتها وجرعته دفعة واحدة، لكن رائحته كتمت أنفاسها فسعلت بحدة وآلمها بطنها وتقلّبت معدتها في جحيم الاشمئزاز فتقيأته في ذات اللحظة، وضربت بوجهها في الأرض وانهالت في البكاء والسعال، وشعرت لأول مرة أنها تموت بالفعل، وأنها في الجحيم منذ وقت بعيد.

تحسست وجهها وهي تمسح دموعها فوجدته متشققا جافاً، ورأت يديها تمتلئ بالبقع، وخارت قواها عن آخرها أمام هذا الخوف الذي يسري في أعماقها، انقلبت على ظهرها حتى لا ترى شيئاً من جسدها بعد وحدقت في سقف الغرفة، وجدفت بمصيرها في كل اتجاه، وكانت تشعر الآن أنها ذنب من الذنوب التي لا تغتفر ولا تقبل الاستعطاف، وتذكرت أن الخوف من الذنوب كان قد صار في حياتها خوفا من الناس ومن الشارع ومن العمل ومن الرجال ومن الحياة نفسها، وأن هذا الخوف الذي حافظت عليه منذ البداية كحرز من الندم والعار والعقاب والقتل وأصابع الاتهام، قد استولى عليها الآن فصارت تشعر أن غفرانه الوحيد أن تذوق هذا العذاب كاملاً، أن تتوحد معه

فيصير خلاصها وكفارتها معا، كان الإعياء قـــد جثّاهـــا علـــى الأرض بلا حراك، وفي نقطة من السقف انغلقت عيناها وراحت تغيب عن الوعي شيئاً فشيئاً.

الفصل الرابع

إن الذي يربي مسخاً؛ ليخيف به الناس ويقمعهم، لا يعرف أن صيرورة الحياة بالضرورة تجعله في يوم ما الفريسة المتبقية الأخيرة لسد جوعه، وذلك يحدث حين تصير الشعوب نفسها مسخاً ضخماً، حفظ مشية جلاده، وصوته، ومواعظه، وأساليبه، ومكائده، وكهنوته، وحججه، لكنه هذه المرة يثور مدفوعا بالقهر والغضب لا طمعا في السيادة؛ وهنا تكون النهاية المدمرة للجميع، الكارثة البشرية الهوجاء، والدم الذي يهرق دمه.

إن وعي الحرية لا يحتاج إلى فهم ولا فلسفة ولا تنوير؛ حين تكون العصا هي لسان المستبد الوحيد، وحين يسجن الجميع، ويقتل الجميع، ويظلم ويجوع ويفتقر ويغرق في الجهل الجميع، بل إنها ستكون حرية متدافعة وأولية ومسعورة كارتداد السيل يفتت حتى الحجر، تلك التي سيكون متقدموها حطبها ونارها في ذات الوقت.

شعرت نادية أنها منذ ولدت وهي في هذه الغرفة، في هـــذا الوضع، في هذا المأزق، في هذا الغياب، لقد أدخلـــها الخـــوف والوهم، لكنها لا تعرف كيف تخرج من نفسها لم يسعفها عقلها في فكرة للخروج من هنا، و لم يسأل عنها أحد، لم يفتقدها أحد، لم يطرق بابها أحد، كم كانت وحيدة وبائسة وسيئة الحظ!.

لقد تعودت طوال حياتها أن تنتظر؛ تنتظر أمها أن تخبرها بما تفعله إذا خرجت من البيت، وتنتظر أحد أخوتها لينقلـــها مـــن مكان لمكان، وتنتظر رجلاً ليتزوجها، وتنتظر والدها لينام فتسهر على التلفاز والإنترنت، وتنتظر اخوتهـــا وأخواتهـــا في الأعيـــاد لتخدمهم، وتنتظر ظهور اسمها في معونة العاطلين عن العمـــل، وتنتظر المعجزات والقيامة أيضاً، و لم تكن لتذهب لمكان، كانت متأكدة بقين أن ما يتأخر فذلك لحكمة وما يأتي صدفة وبعـــد فوات الأوان أتى لأنها انتظرته بأدب.

وهذا ما فعلته حين وجدت نفسها محبوسة، انتظرت بكل ما تملكه من خنوع وخوف وخجل، انتظرت يومين وها هو نهـــار اليوم الثالث، ترزح فيه تحت الإعياء والتجفاف والهلاوس، كانت تفتح عينيها لدقيقة وتغيب عن العالم لساعات.

لم تكن غاضبة، بل حزينة ومقهورة وخائفة، كان ينقصها الغضب منذ البداية لكنها تعتبره من الشيطان وأن الذي يغضب يتلبسه الجان، ويجبره على ارتكاب الفظائع، ولهذا بقيت تحـــاذر

من الغضب حتى هجرها، وهي الآن تفكر بطريقة واحدة؛ إثارة شفقة الحياة، إنها متلائمة مع دور من يستعطف الجدران والأبواب المغلقة، أكثر من الذهاب إليها ودقها بعنف، بل لقد صارت تجري حوارات معها تتملقها فيها، مع الوقت صارت مدينة للجدران بشعورها بالأمان وأنه لولاها لتعرضت للاغتصاب أو السرقة أو القتل، و لم تعد تشعر بالحياة خارجها إلا كحلم بعيد المنال، رأت أنه من المستحيل عليها في كل هذا الإرهاق أن تحرك ساكناً، وبدت الجدران صيانة لها من مصير مجهول تخاف منه في العراء، لقد وصلت لنتيجة أن هذا المأزق بالذات أختير لها كرحمة، وأنها مختارة بين كل نساء العالم لتعيش في هذه الغرفة بالذات، وأن الآخرين ليسوا جديرين بامتحان عصيب كهذا، إنها مختارة ومحاطة بالبركات، بهذه الطريقة سكنت من جديد، إذ فضلا عن غياب صوتها، سكنت حركتها تماماً وقبعت في مكان واحد، تقل ساعات وعيها عن غيابه وتتشابه عندها، إذ أن ما تتذكره لا يختلف كثيرا عما تعيشه الآن.

ولشد ما تعجبت من أحلامها واستغفرت منها، فقد كانت في مناماتها تهرب مرة، وتسخر بكلمات نابية من الجدران مرة، وتشكك في نزاهة روحانية وجودها فيها مرة، وتتجرأ على النافذة فتعطب قضبانها بيدها مرة، وتخرج بلا عباءتها إلى الشوارع مرات، كان كأن شيئاً منها يدير حياة خيالية في غيابها،

وأنها تشارك في هذه الحياة مادامت غير معروفة وغير مراقبة، وتشعر بسعادة للإقبال عليها بكل نزق، وكلما استمر المنام كانت تكتشف امرأة أخرى مخبوءة في نفسها، تحب الحياة وتستمتع بها، وترتكب الكثير من الحماقات بجرأة ونشوة، وكانت مستعدة باستمرار للذهاب فيها بعيداً، لكنها ما إن تفتح عينيها على غرفتها وذاتها من جديد حتى تشعر بالمقت والاشمئزاز، وتبدأ في توجيه سيل من الشتائم لنفسها، وأن ما يصلح ويقبل خارج هذه الغرفة مختلف بالكلية عن ما يقبل داخلها، وأن الضعف والجدران شيء يصوره لها الشيطان ووساوسه، وأن الإيمان والرضا والتقوى أن تسلّم أمرها لإرادة القدر، وتستعيذ من أحلامها التي لا تدري من أين تأتي، إن الإيمان بوجود هذه الجدران وهذه الغرفة هو إيمان بالحياة نفسها بالنسبة لها، ، إنها بدونها لم تكن لتتعرف على فحوى وجودها، وأنها اهتدت أخيرا للعبرة من كل عذاباتها وصبرها، تغير وضعية نومها وتنقلب إلى جهة اليمين، وهي تشعر بالندم على هذا الرأس الذي يحركه الهوى.

تتذكر نادية كيف كانت تخاف من وجودها لوحدها في مكان عام ودون ان يراقبها أحد، كانت تشعر أن صوتا في داخلها سيخونها وسيصرخ جذلا أو حماقة وأنه سيقول كلاما مقذعاً أو سيموء أو سيعوي، وأن قدميها ستمشيان رغما عن

إرادتها، وأنها ستخرج عن السيطرة، لقد باتت تخاف من نفسها بالفعل ولا تثق بنزاهتها الذاتية تماما، لطول ما راقبوها صارت تشعر أنها ستفعل شيئاً خاطئاً وخارجا عن المألوف حين تترك هكذا وحدها، تتذكر كيف وقفت على هذه المشاعر المتضاربة كثيرا في عملها، وكيف كانت تبتعد مسافات عن كل من تتحدث معه متخيلة بشكل مكبوت وحقيقي في أعماق نفسها أنه سيلمسها رغما عنها، وسيتحرش بها، كان هذا الصوت هو ما ضرب في رأسها كله وهي تدخل إلى دورة المياه في المستشفى وتكتشف وهي تخرج أن أحد عمال الصيانة يقف معه رجلان من إدارة المستشفى وعاملة تنظيف الحمام يصلح خللا في صنابير الماء، لقد صرخت وبكت ودخلت مرة أخرى للحمام وأغلقته على نفسها، وانتظرتهم حتى اختفت الجلبة، وكان قد مضى على مكوثها هناك ساعة كلفتها لفت نظر من المشرفة على قسم الاستقبال والكثير من السمعة السيئة التي بدأت حبكتها من زميلتها الجالسة بجانبها.

كان يبدو كأن شيخوخة والديها وتفرق إخوتها في المدن وخروجها للعمل قد جاءت كلها بعد فوات الأوان، وبعد أن صارت كائنا آخر لا تعرفه ولا تحبه، ولا تريد له أن يعيش.

إنها لا تدري الآن هل هي هُنا من ثلاثة أيام، أم ثلاث سنوات، أم ثلاثة عقود؟ ولتعرف ذلك شعرت أنه عليها أن

تتذكر، أن تعتصر ذاكرتها لتصل إلى بداية كل هذا، ذلك أن طفولتها كانت حاضرة في مكان ثقيل من ذاكرتها، بشكل يجعلها تشعر أنها ماتت بعدها مباشرة، وأن شيئاً غريبا ما حصل وجعلها تواصل الوجود على الأرض دون أن تنتبه أو ينتبه أحد، تتذكر الألعاب والتمثليات التي كانت تلعب فيها مع أولاد الجيران، وكانت تحب أن تكون هي طبيبة الحي، فكانت تضع خيطا من الصوف في نهايته عقدتين تدخلهما لأذنها وتضع في بدايته غطاء بلاستيكياً وتجس به نبض الأطفال الآخرين، لتخبرهم دائما أن عليهم ألا يتوقفوا عن زيارتها ليتحسنوا، وفي بعض الحالات كانت تلعب دور البنت التي لديها أب مسافر واخوة مسافرون وأم تختار فيها جواهر ابنة الجيران، كان في داخلها شعور بدائي وسابق أن غياب الذكور وسفرهم سيجعلها مرتاحة أكثر، وستخرج في الصباح لتحضر لأمها في اللعبة كل ما يحتاجونه من السوق، يمر عليها طيف الطفولة فتشعر بأنه ورغم ثقله في إحساسها بوجودها إلا أنه ضبابي مختبئ خلف الكثير من النسيان والتجاهل بشكل يجعلها تلمحه بشكل متقطع ويكاد يكون بعيدا وشارداً تشك في وجوده كثيراً، وكم تنهدت فجأة وهي تشحذ صورة من هذه الطفولة لمجرد أن تطمئن إلى أنها كانت يوما ما مثل بقية الأحياء، انسان لا يعرف الكثير لكنه يشعر بكل شيء بقوة ولديه دائما ما يسعده وما يريده، حتى أصغر الأشياء.

تبسّمت بنظرة يبرق فيها الحنين، كمن ودّع جزءاً منه في المجهول بشكل نهائي، و لم يعد تذكره سوى نوع من الحزن الخفيف، ذلك الحزن الذي يسري في دمائنا ونتنفسه بخضوع طيلة الوقت، وفكرت هل تريد أن تعود طفلة، أم تريد أن تمضي، أوجعها أنها لم تعد تريد شيئاً بعد وأن ما هي عليه الآن قدر نهائي لا رجعة منه، وأن عليها أن تتعامل معه كمصير لا كاختيار، وأن تتحمله لا أن تتحامل عليه.

تذكرت كيف أنها مرة رأت مناما لها وهي تمشي في بيتهم القديم وتدخل من غرفة لأخرى مع أنها لم تعش فيه سوى ثلاث سنوات من طفولتها لا تذكر عنها شيئا، وفي الصباح سألت أمها عما رأته ووصفت لها النوافذ والألوان والأبواب فأثارها كيف أنه كان وصفا دقيقا لهذا البيت الذي سوي بالأرض الآن، عندها شعرت أن ذاكرتها تدافع عن عمر ما وعن مرحلة بذاتها وتستجديها لاستنكار كل ما حدث بعدها في رغبة مكبوتة للعودة، فأحيانا تتذكر ذاكرتك في غفلة منك مالا تتذكره أنت نفسك، إنها طريقتها في حماية وجودها إذا تطلّب الأمر.

وتعجبت من وجودها في هذه الحالة وحدها وكيف أنها تتحملها طيلة هذا الوقت دون أن تصرخ صرخة واحدة، ودون أن تقوم بأي فعل ضد هذا الدفن البطيء، فقد تعودت ومنذ عرفت الوحدة أنها شيء مرعب لا تتحمله نفسها، كانت تهرب

منها في اتجاه أية تجمع نسوي في البيت في الجامعة في حفـــلات الزفاف في العمل، تريحها فكرة أنها جزء من آخـــرين، وتشـــعر بالأمان من نفسها في الأحاديث والوشايات والثرثـــرة ومراقبـــة الآخرين، كانت تعتني بالكثرة وتطمئن لما يفهمه ويرحـــب بـــه الجميع، تريحها التصرفات والطقوس التي يقوم بها الجميع، وتجفل من كل شيء يتطلب اتقانه أو تجاوزه مجهوداً ذاتيا، وتشـــعر أن كل شخص منعزل إما مريض أو سيرتكب جريمة.

وفي هذه الجلسات كانت تضاعف وجودها من خلال ذم ما يذمونه وامتداح ما يمتدحونه، تحضر مع الجميـــع بوجههـــا الفاضل وتستغفر معهم من المخطئين وتشمئز معهم من الـــذين جرهم الشيطان لخطواته، ويدور حديثهم عن تفاصيل صغيرة قد تأخذ ساعات وأياما في الحديث عن حكم قص الشـــعر لقصـــة معينة، أو علامات نهاية الحيض والطهر، وكانت تشعر بســـعادة كبيرة حين تكون تمتلك معلومة تقولها عن حكم شيء محرم ما، كانت تشعر أنها تخطّ خطاً واضحاً للنجاة بينها وبين الشـــر في العالم، ويرتفع صوتها فجأة وتبرز عروق رقبتها وهـــي تحلـــف لإحدى الزميلات أنها سمعت الحكم قريبا مـــن الإذاعـــة وأنهـــا متأكدة منه جداً.

وفي داخلها وبشكل لا تقصده كانت تشعر أنهـــا تصـــبح أقرب وأكبر إذا تحدثت عن فضائلها وعباداتها معهم، وتسمعهم

وهم يزايدون عليها بفضلهم فلا تصدقهم تماما إذ يخطر لها فعلا أن الذين يصرخون بفضائلهم يخبؤون خلفها نفوساً ملطخة بالخطايا والعار، لكنها ترتاح أن تتخيلهم كذلك فعلاً، ترتاح أن يكون المكان الذي تعرفه يعج بهذه التقوى تشعر بسعادة لا مثيل لها وهي تتشابه معهم، تنسجم بينهم، تصبح أذنهم ويصبحون صوتها، تلك الاجتماعات المشغولة بتأطير صورتها في المجتمع، وما ينبغي أن تكون عليه لئلا تخرج منها، أو تميل فيها، كل ما تحتاجه لتشعر بالتواؤم مع فكرتها عن الحياة ولتستعيد من وقت لآخر ثقتها بها.

وكم كان يرعبها ويثير حقدها أن تشوه صورة أحد الوعاظ الذين تتلقى عنهم منذ عرفت نفسها شروط حياتها وحدودها كامرأة مؤمنة، كانت تشعر كما لو أن جبلاً يتهدم باتجاهها أو كأساً من الماء تقذف فيه كومة من التراب فجأة، تتمعر غضباً وتشعر أن شيئاً ما يهدد وجودها نفسه، وتبدأ في صب لعناتها وغضبها واحتقارها على الذين تجرؤوا على كلمة الله ودينه، وأنهم ينبغي أن يحترقوا أو يموتوا في ذات اللحظة، أو تخسف بهم الأرض، أن ينتهوا قبل أن يكملوا كلمتهم، يتفاقم هذا الحقد فجأة في نفسها فيخيل إليها أن هؤلاء الذين صاروا أعداءها نتنوا الرائحة وأشكالهم قبيحة، وإذا كان أحد منهم يجلس بجانبها فسرعان ما تبتعد عنه إذ تتصور أنه يمكنه أن يصيبها بلعنة أو ينقل إليها هذا

الشيء الجريء الكبير الذي يزعزع به عالمها، فقد كانت تشعر أن هذا الخراب يكبر فيلتهم رأسها إذا فكرت أنهم صاروا أناسا كثيرين وتلجم كل هذا الهلع بأن تستعيذ بالله من آخر الزمان ومن الفتنة وتتمنى أن تموت قبل أن يحصل شيء بهذا السوء.

هناك من يرى العالم من وجهة نظره الوحيدة والنهائية التي تكتسب جدواها من جماعيتها وكثرة القائلين بها لا من أي شيء آخر، وما يجعل الآمر صعباً أنه مطمئن إليها مرتمياً بكامله في داخلها، ومتعود عليها تعود جعلها مع الوقت تحتل ذاته نفسها، وتصبح طريقته في التعبير عن وجوده ورؤاه وتواصله مع الآخرين ومع الحياة، إن من تصبح معتقداتهم هم بلا زيادة ولا نقصان؛ فقد أصبحوا بإرادتهم الدروع البشرية للجهل والطغيان والحروب والساسة، وإنهم كل ما يحتاجه الشيطان ليسن ميثاقا للتفاصيل.

إن الذي أصبح فكرته المطلقة، لم يعد باباً يمكن طرقه ويمكن أن يفتح، ولا نافذة يدخل منها الضوء والهواء، بل أصبح جداراً مصمتاً يصنع مع جدران كثيرة سجنا كبيرا يبتلع الحياة والحرية والإنسان، ومع الوقت ستكتشف أنك لن تصير نافذة لهم أبداً لأن ذلك يعني هدم الجدار وبنائه من جديد، وستكتشف أنك متعب وهم متعبون، أنت مشكلتهم وهم مشكلتك، أنت عدوهم وهم أعداؤك، أنت تسخر منهم وهم يخافون منك، دائرة مكتملة التعاسة وبالغة الفداحة والأثر.

وعليك أن تعرف أن وجودك في الحياة بحد ذاته ادانة تنتظر الإثبات، فالأبرياء الوحيدون يموتون قبل المجيء، إن أول شيء تفعله من تلقاء نفسك تكون به قد اتخذت موقفك من هذا الوجود، أما إذا انتظرت أن تقلد وتُلقن وتُؤدب؛ فسيتحول موقفك مع التعود إلى ضدك مهما ظننته في صالحك، لأنهم لن يعلموك سوى أن تكون جزءا منهم وامتداداً لهم إنك طريقتهم في البقاء وإنهم يحمون بك أنفسهم منك، وإن هذا ما تفعله الثقافات الشمولية في العالم؛ تتناسخ!

وهكذا علقت نادية في كل ما تعتقد أنه خلاصة الوجود الوحيدة، وطريق الحياة الصحيح، وفحوى الصوت الأعلى والأكثر عدالة وأماناً،

إنها الآن مسجاة بالجسد والروح معاً أمام محراب هذا الحرام الكبير لا لتصلي هذه المرة بل لتموت بهدوء متناهي، ودون طلب للنجاة، أو إثارة لحفيظة هذا المحاط بالتسليم والكرامات.

كان المكان قد أصبح خانقاً وشعرت أنه يسحب أنفاسها دون أن يعيدها، وخيم ظل كئيب على صدرها، وسيطر الغم والخوف من الموت من جديد عليها إذ ما إن تفتح عينها وتستعيد شيئاً من وعيها حتّى يحز في نفسها أنها لم تفعل شيئاً لتنجو، وأنها لا تملك شيئاً لتفعله، ولا تملك قوة لتكسر الباب، ولا تغفو غفوتها الأخيرة بعد، ومازال عليها أن تنتظر، لطالما هربت من

مواجهة أصغر المخاوف وأبسطها، ولطالما استسلمت لكل ما فرض عليها أو وجدت نفسها فيه لكنها هذه اللحظة في مواجهة الشيء الوحيد الذي لا تستطيع الهرب منه، وبالرغم من أنها فعلت معه ما تعرفه، استسلمت وقبلت وانتظرت، إلا أن بطأه يكاد ينزع قلبها من أحشائها من شدة الكبَد والحزن.

بدأت من جديد تشحذ حياتها من خلال ذاكرتها كما لو كانت محاولة بالغة اليأس أن تعود ومهما تكن هذه الحياة فهي كل ما تعرفه إزاء الموت الذي لا تعرف عنه شيئاً، وإننا نهرب باتجاه ما نعرفه مما لا نعرفه دائما ولذلك تصغر حياتنا ويكبر الخوف والحذر.

كانت تريد التأكد هل عاشت صالحة وطيبة وكما يجب، شحذت ضميرها لتتذكر كل ما فعلته من أعمال طيبة، واكتشفت أنها ومنذ كبرت وأصبحت وحيدة مع أبويها لم تعد تصلي سوى صلاة الظهر لأنها تكون في العمل وأمام الناس، لكنها خجلت من هذا الاكتشاف وتجاهلته فوراً وتخيلت بشكل مقتنع أخيراً أنها ما تزال تصلي كل صلواتها في أوقاتها، فهي تؤمن أنك ما دمت تحمل النية فقد فعلت، وما دمت تندم فقد أنكرت، وكان هذا تقريبا هو كل ما يوجه حياتها من أعماق قلبها؛ الندم والنوايا، وما بينهما كان يتعرّش الخوف وتتثاقل الخطى.

فكل شيء عندها كان معدودا ومحدوداً، عدد ما تستغفره لتبني لها قصرا في الجنة، وعدد ما تسبحه أيضا، وعدد ما تصليه

من ركعات اضافية، وعدد ما تفطره من ايام في رمضان، وعدد ما تحتاجه من مقادير لطبخة معينة، وعدد ما تقتنيه من ملابس، وعدد الشعرات البيضاء في رأسها، وعدد ابواب الجنة والجحيم، وعدد الأحاديث التي تحفظها، وكانت تشعر بالأمان للأشياء التي يمكن عدها، وكلما كان العدد معلوما ومتاحا كلما كان ذلك يعني أنها تقف على أرض صلبة، وأنها لن تضيع، كانت حياتها محاطة بالعد والتعداد بينما كانت نفسها هي الصفر الوحيد الذي يعد كل هذه الأعداد ويعتني بها.

جالت بعينيها في الغرفة فوجدت كل شيء قابع في مكانه، لا شيء يقفز من خوفها، ولا شيء يتفتت من يأسها، ولا شيء يحدث جلبة من تلقاء نفسه، شعرت بأنها تُركت وحدها منذ وقت بعيد، لكنها ارتاحت لوهلة من وجود كل شيء مكانه ومن هذا الترتيب، فلطالما حافظت في نظافتها للبيت على كل شيء في مكانه، وكم كان يوترها أن تجد خللا ما أو فوضى في الأرض أو تحريكا لشيء من مكانه الذي اعتادت عليه، وكم تعاركت مع أبناء اخوتها المزعجين الذين يأتون في الإجازات ليحركوا هذه السكينة التي صنعتها مع الأشياء من حولها، وكانت تضربهم أحياناً إذا تطاولت أيديهم على أشياء يمكن أن تكسر أو تتلوث من بقايا الحلوى والأتربة في أيديهم، فكانوا يسمونها العمة نظيفة، بينما كانت هي ترى أن ذلك نوع من

التكريم لها وكان هوسها هذا بالنظام يجعلها بالرغم من حبها لهم تكره أن يطيلوا مكوثهم في البيت فيخرب كل شيء كانت قد استمدت الأمان وتلاءمت نفسها مع وجوده بشكل معين في مكان معين.

حتى وجهها وشعرها وملابسها كانت ثابتة لا تتغير، فشعرها معقوص دائما للخلف بلون أسود باهت تتخلله شعرات بيضاء في المقدمة، ووجهها من كثرة ثباته باتت له نفس التقاسيم والملامح طيلة الوقت يشبه من تلقّى خبرا صادما فظل مشلولا على امتعاضه للأبد، وملابسها دائما فضفاضة بألوان داكنة لأنها تجعلها لا تقف على شكله الغير متناسق، لقد صارت مع الوقت وكأنه تم صبها في قالب متجمد تدور في داخله بغصة مكبوتة بعنف، وتماهٍ تحتار هي نفسها منه، وأصبح أي تغيير مزعجا ويثير خجلها ومقتها وكم كانت تكره أن تجبرها أمها على حضور حفلة زفاف معها، إذ يتطلب ذلك أن تخلع جلابيتها وشعرها المعقوص إلى شيء مختلف، فكانت تلتصق دائما بالجدران وأطراف الطاولات وتسارع للجلوس في مكان واحد منذ بدء الحفلة إلى نهايتها، وكم كانت تشعر بالسعادة حين تشعر أن لا أحد ينتبه لها بينما هي تنتبه لكل تفصيل دقيق في النساء حولها، وتخمّن أسماء أزواجهن وأشكالهم، وكانت تجعل الجميلات تعيسات جدا أو على وشك الطلاق، أما القبيحات فكانت تعتقد

أنهن أمهات معذبات وزوجات أُوَل تزوج عليهن أزواجهن وهجروهن، أما العروس فقد كانت تبحث فيها طويلا عن سبب يجعلها مزيفة بالماكياج، وكم كان يبتهج شيء في داخلها حين تكتشف عيبا تمت تغطيته، فتبقى تحكيه وقتا طويلا لأمها بعد العودة، لكن الآخرين بالنسبة لها ورغم كل شيء كانت تراهم سعداء، ولديهم أشياء تبعدهم عنها وتبعدها عنهم أكثر، لقد كانت تعتقد فعلا أنها يجب أن تكون سواها لتشعر بالحياة ولتعيشها، وأنها خطأ غير مقصود لكنه يأكل ويشرب ويتنفس ويثير شفقة وسخرية الآخرين فقط.

حتى ناصر الذي منذ وقعت في حبه وقعت في حب الأوهام والتجرد من الواقع، لأنك حين تحب فلا شيء يمكنه اقناعك بالمستحيل، والعاشق يسمع كل اللاءات نعم، فقد كانت رغم معرفتها فيما بعد عن حجم تعاسته وفقره وبؤسه، وعيشه معظم الوقت على صدقات الأقارب أو الديون، إلا أنها بقيت مقتنعة تماما أنه أسعد منها، ، وأنه كل ما تحتاجه لتكون سعيدة بدورها وأنه شيء بعيد لا يمكن أن تكسبه سوى بالتخلي النهائي عن ذاتها، أو إن هذا ما وجدت نفسها فيه وهي تحبه، فقد كانت ترمي بنفسها في اتجاهه كلما شعرت أنه سيهجرها، وكانت تستميت في الإمساك به، دون أن تملك طريقة لهذا، مع الوقت بدا لها أن جسدها هو طريقتها الوحيدة في التواصل معه، فكانت

تندفع بين يديه بكل خجل ونفور وعجز في ذات الوقت لتتمكن من اشعاره بالرضا عنها، أو مجرد البقاء إلى جانبها أطول وقت ممكن، والشعور بإقباله عليها، لكنها اكتشفت أن هذا لم يكن مجديا وأنه سرعان ما يتهرب منها مرة بعد مرة، وهو يعدها بما تتوسله منه، حتى اختفى في النهاية كما لو كان صفعة مدوية تركت أثرها في كل جسدها وأخذت معها ما تبقى من كبريائها وأنوثتها.

وكانت قد خسرت به آخر رهاناتها مع الرجل، فقد خسرته أبا وأخا وحبيباً، وصار الابن مستحيلاً أيضا، لكنها كلما تذكرته أحبت أن تتذكره كحب لا كذنب، وكصدق لا ككذبة، وكأمل لا كيأس، فقد كان مجرد تذكره يبعث نهراً ينساب في صدرها فتدمع منه عيناها بحزن مضيء تغفر به لكل حياتها لو شاءت.

إننا في اللحظة التي نحب فيها نتجرد من كل قوانين البشر، ونشعر أن الصواب الوحيد الذي يمكننا القيام به هو أن ننغمس فيه أكثر، إنه استثناء الضمير الأكبر في حياتنا، ذلك أن الضمير قد يحضر عند أعتى المجرمين وفي لحظة ارتكاب جريمته لكنه لن يحضر عند الذي يحب، وفيما عدا الحب كان ضمير نادية يأتي من خارجها، أخلاقيا كانت تصنعه من المجتمع وما يمليه عليها، أما من داخلها وفعليا فلم يكن يوجهها سوى الخوف.

لقد تربّت على خوف كبير تحتضنه السماء وتحته مخاوف لا تنتهي حتى في الموت والتلاشي كانت تخاف من عذاب القبر ومن العقارب والأفاعي التي يمكن أن تطاردها في رحلة الفناء بلا هوادة، وفي واقعها اليومي كان خوفها الحاضر باستمرار هو الخوف من الرجل، ومن لسان المجتمع الذي لاك وقتاً طويلا في سمعة فتاة في بلدتها، كانت ملعونة من الجميع ولعنت معها فيما بعد أسرتها وأمها التي قاطعتها النساء، وأبوها الذي لم يخرج في جنازته سوى أولاده وبعض الغرباء، كان الخطأ بهذه الفداحة مخيفا لها أكثر من الخطأ نفسه، ذلك أنها في داخلها كانت تتعاطف سرا مع تلك الفتاة الجميلة التي كانت زميلتها في المدرسة وحديث الشباب في حفلات الزفاف والأعياد، وكانت تشعر أن ما حصل لها أكبر بكثير من فعلتها، إلا أنها أمام الجميع تقرر أنها وضيعة وعفرت سمعتها في التراب، ولم يعد ممكنا سوى أن تموت على تلك الحالة، وكم أثارت دهشتها وهي تلتقيها في عزاء خالها الذي هو زوج عمة هذه الفتاة وقد أصبحت أجمل وتزوجت من رجل يحبها كثيرا ولديها منه طفلتين، يومها شعرت أن الحياة لا تسير على القانون الوحيد الذي آمنت به وتعرفه، وأن ثمة أناس يحبهم القدر بقدر ما يوجعهم، كان يربكها كثيرا أن تجد ما يغاير الخط المستقيم الذي عليها أن تمشي عليه، ويزرع في داخلها مزيدا من الرفض والخوف بدلا من الشك، وتفضل أن

تعتقد أن خسائر هذا الخروج ستأتي في الحياة الآخرة، يريحها هذا الافتراض الممتد للشمن، كلما واجهتها الحياة بما لا تريد أن تفهمه، أو تتصالح معه.

وحتى حين انفرطت عقدها بطريقة أولية جامحة وبالغة الرخص في تعويضها لفداحة خسارتها للحب، فإنها ظلت في كل تلك المعمعة والأخطاء والعلاقات الجسدية الخالصة تحتفظ بهذا الطريق الحاد في داخلها وتشعر بندم مرير وخوف لا مثيل له، فكانت تعود للمنزل لتصلي أكثر مما يجب، ويزداد كرهها لما تفعله ونكرانها له، فقد كانت ما تزال توجه الحديث في المجالس عن فضائل الحجاب المحتشم الذي ينبغي، وأن على المرأة أن تغطي حتى يديها لأنهما يعطيان الرجل اشارة عن لونها، وكانت تقول "هناك نساء أيديهن فاتنة جدا وقد تسحب الرجال للخطيئة"، بل إنها وبفضل تواصلها الجديد مع الإنترنت أصبحت تقدم آراء عن الفاسقين الذين يرغبون في جر المرأة إلى السفور والاختلاط والحرية.

كان لديها هذا الشعور بالامتلاء كلما أمسكت بنصل الطريق المستقيم وقطعت به طريقا بينها وبين الشر والخير، بين الليل والنهار، بين ما تثق به بكل ثقلها وبين ما لا ترغب أن تصدق وجوده أو مشاركته، وكانت بهذا تحرر ضميرها الخارجي من المساءلة وخوفها الداخلي من الانقضاض عليها.

على أنها كانت تبكي وتحترق في بعض الليالي ليس شـــعورا بالندم بل بالشفقة على نفسها، على حظها وقدرها، كانت تكبت في داخلها كراهية فتاكة لكل حياتها ومجتمعها وعائلتها، وكل مـــا يحيط بها من دوائر مغلقة لا تعرف سواها، وكانت تحاول في هـــذا البكاء والحزن أن تتغير فجأة أو تختفي، أن لا تواجه كل هذا برأس يصطك في بعضه كجرذ محبوس في مصيدة وسيموت وهو يـــدور على نفسه، كانت تشعر أحيانا بهذا الجزء الجبّار من ثقل الوجـــود، لكنها لم تكن لتفعل شيئا أكثر من التسليم له حتى ينتهي أو يخف أو تتشاغل عنه بالمزيد من العمل المنزلي، أو الاتصال بإحدى أخواتهـــا لتتحدث معها طويلا عن أشياء يومية عادية لكنها بالنسبة لها كانت مهمة ويمكن أن تغير مزاجها أو تشعرها ببعض الارتياح.

كان الصمت بالنسبة لها أمراً رهيباً ومخيفاً، لذلك تتحاشاه بسرعة في اختلاق موضوع للكلام إذا كانت بحضرة أحد، وحين تكون وحدها فإنها تدندن أو تستغفر أو تعدّ أو تهمهم بصـــوت مرتفع، المهم ألا يتشعب حولها صـــمت لا تطفئـــه في الوقـــت المناسب، وكثيرا ما رفعت صوت التلفاز أو إذاعة القرآن لتحدث صوتا يطفو على الصمت فلا تراه، ولا تغرق فيه، وفي الليالي التي يهاجمها فيها الأرق كانت تبحث عن شيء معطل لإصلاحه أو متسخ لتنظيفه أو ملابس مقطوعة لإعادة حياكتها، أو تخرج كل ما في غرفتها من أثاث وتعيد ترتيبه وتنام من التعب.

شعرت بخدر ثقيل يربض على قدميها و لم تعد تستطيع رفع رأسها باتجاهها لترى ما حل بها، إنها مجهزة ومنذ تميزت كونها امرأة أن تكون مفعولا به، وأن تستجيب لكل ما يفعله الوقت بها، وهي الآن تفكر فقط في مدى تحملها وكم ستصمد في تلقي هذا الألم، وفي اعماقها كانت تتمنى لو امتلكت مزيدا من الصبر ومزيدا من الأمل لتنجو، وببطء ومن جديد راحت تغيب في ظلمات فقدان الوعي.

رأت أنها ترفع يديها في محاولة أخيرة للنجاة كمن يريد أن يأخذ غائبا عزيزا في حضنه لكنها شعرت أن يديها تصبحان ثقيلتين لا يمكنها رفعهما أكثر فطوحت بهما في الأرض وتردد في أذنها صوت ارتطام آخر محاولاتها وآخر آمالها، التفتت إلى جهة يدها اليمنى فاقشعر جلدها هلعا مما تراه، كان يخرج من طرف كمّها جيش أسود مسموم، لوهلة تغير مكانها فرأت أنها هاربة في مكان غريب كله حطام ودمار، وهالها أن ذلك الجيش الذي هربت منه ينتشر في هذا المكان الغريب، رجاله ينعقون على الجثث كالغربان وينهشون كل ما بطريقهم، يسحلون الناس في الشوارع، ويصلبونهم وينحرونهم ويحرقونهم ويعدمونهم بالرصاص جماعات وفرادى، كانوا يلوحون بسكاكينهم ويكبرون، حاملين الرؤوس المقطوعة عن أجسادها ويرقصون، مر بجانبها واحد وهو يهتف "يا له من منظر جميل!".

كانوا يبدؤون غرباء وكلما اقتربت منهم استحالت وجوههم لوجوه تعرفها، وتحفظ أسماءها، وكانوا يصيرون اخوتها وأبناء الجيران، وإخوة زميلاتها وأبناء بلدتها، ومدير القسم في عملها وبائع البقالة، بل وحتى أخواتها وجاراتهم وأطفال وصبية، راعها أنها تعرفهم وركضت في كل اتجاه فكانوا يخرجون من البيوت، ومن كل طريق، وفي غير مرة توقفت لاهثة، يتصبب جبينها عرقا لتتلاحق أنفاسها فترتاع أكثر حين تكتشف أنهم صاروا يقتلون بعضهم ويكبرون أيضا، ضعفت ركبتيها من هول ما رأت، ولكثرة ما دهست من جثث وما شربت ثيابها من دم، وعرفت أنها لن تنجو أبدا فقعدت في الطريق، وكانت الحرائق في كل مكان وصوت الرصاص لا يتوقف، فأطرقت تصم أذنيها ولا تنتظر هذه المرة سوى الموت.

الفصل الخامس

كان ثمة ضوء خفيف مثل حداء حزين يهيم على رموشـــها وهي تغالب لفتحها فتنغلق مرة أخرى، فتشعر أن سمعها يصـــير صافيا يلتقط حتى حركة الهواء عند النافذة، وصوت عربات تبتعد كما لو كانت تسحب معها رجاءها وتبعثره في المدى، شعرت أنها تمد يدها وأنها تنهض بقوة وبأس وتركض باتجاه والديها وهي تبتهج في نفسها أنه مجرد منام.

كانت أوجاعها تتلاشى وتخف وتشعر أن جســـدها غـــير موجود وأن روحها تحلق في الغرفة بعيدة عنها ولا يمكنها أن تمد يدها لتلتقطها، شعرت أنها موجودة بهذه الحالة من الفرقة بـــين الجسد والروح منذ زمن بعيد جدا، وأن أي محاولة لوصلهما معا كانت تتطلب امرأة سواها وحياة سوى حياتها وعالما كاملا غير عالمها، وفكرت في الحياة، الحياة التي توشك أن تغادرها بكل هذا التلاشي والرهافة، للدرجة التي تشعر هي نفسها أنه أمر كـــان يجب أن يحدث منذ وقت مبكر.

مر شريط حياتها من أمامها فرأت أنه باهت وقصير كأنه لحظة، هل كان يحبها أحد؟ هل كانت تحب أحد، هل تريد الآن أن يشعر بها أحد؟، كان يبدو لها أنها غادرت بالفعل وأن شيئا ما سمح لها أن تطل من نافذة الغياب لتدرك حجم هشاشة حياتها كلها، رأت أن والديها الكهلين يواصلان الحياة ولا أحد يتذكرها إلا حينما يحتاج إلى عمل في المنزل أو خدمة ما، وأن اخوتها حضروا جنازتها فقط من أجل كلام الناس كما كانت تعيش هي حياتها لكلام الناس، أغمضت عينيها بشدة يعتصرها حزن خانق ووحدة رهيبة، وفكرت كيف سيكون شكل الموت عندما يأتي لأخذها أخيرا وهل ستكون مستيقظة لتراه وتصعق من الرعب فتنفتح عيناها عن آخرها كما ماتت احدى جداتها، وهل هو سهل أم موجع وصعب ويسحب من جسدها روحها كسكين تخرج من أحشائها وتمزق كل شيء في طريقها ببطء، هل سيتحدث معها ويخبرها بشيء قبل أن يفعل، هل سينقذها أحد، أي أحد قبل أن يحضر الموت بلحظات؟، درات في رأسها التساؤلات كريح عنيفة تتكسر أمامها كل الخطوات وكل الإجابات وكل المشاعر عدا الخوف والرغبة في أن يتوقف كل هذا فجأة وبسرعة.

صلت، استماتت في الصلوات بلا صوت ولا حركة، كان كل جزء من كيانها يحشد صلوات لا تتوقف من أجل الغفران أو

النجاة أو الرحمة، توقفت الآن على كونها جثة ترى كل شـــيء بعد الموت وتسمعه وتشعر به، رأت أنهم يسحبونها ويجردونها من ملابسها لغسلها، رأت أن أمها تنظر إلى كامل جسدها العاري ولوهلة انتفضت من هذه الفكرة وأزها خجل جارح أن تقـــف والدتها بالذات على شعر عانتها غير المحلوق، وجسدها المترهـــل والمليء بالخطوط الحمراء والبيضاء والبقع، رأت أنه من الظلم أن تعيش فيه كل هذا الخجل والازراء ثم تخجل منه وهو يغسل بين أيدي الأحياء وتمنت أن تغسلها امرأة غريبة ومشغولة لا تميزهـــا ولا تقلّب وجهها لتتعرفه جيدا ولا تتحدث على رأســـها عـــن عنوستها وقبحها وحظها البائس وشبابها الذي ضاع، وتمنت لـــو أنها كما عاشت هنا في كل هـــذا التجاهـــل ونظـــرات الازدراء والدونية أن تموت بعيدا بعيدا في مكان لا يعرفها فيه انســـان ولا يشقق ثيابها وأن تأكلها السباع والطيور، بدلا من أن تموت هنـــا، وبين الذين زرعوها كنبتة صناعية في مزهرية لا تعرف ما هو الماء.

تبسم في داخلها خاطر كيف أنها ستموت وهي لا تحمـــل ذلك الغشاء المقدس الرقيق الذي عاشت حياتها كلها وهي تخاف منه وتخاف عليه وتخاف عائلتها وكل الناس في وطنها أن يصيبه سوء أو يتزحزح من مكانه، وتذكرت المرة التي رقدت فيهـــا في المستشفى لبضعة أيام بعد معاناتها من تسمم غـــذائي، وكيـــف زارتها من الغرفة المجاورة امرأة اختها مضروبة بعنف مـــن أحـــد

اخوتها وترقد في المستشفى لعلاج كسر في الفك، وكيف كانت تحكي لها وللنسوة اللاتي في الغرفة ما حصل لأختها وأن الشرطة عندما حضرت لأخذ أقوالها اعطوها ورقة وقلما لتكتب فيها ما جرى لها فلم تكتب كلمة واحدة، كانت تقول للنسوة كل ذلك العذاب والمعاناة وفي طرف الحديث قالت انه دفعها من أعلى الدرج وسقطت حتى أسفله وكانت ترتدي كعبا عاليا فسقطت عليه، تتذكر نادية بذات السخرية التي يحملها جسدها معها للموت كيف تجاهلن كل شيء وسألن بصوت واحد وأسئلة متتابعة "هل حصل لبكارتها شيء؟، هل فحصها الطبيب؟ أرجو ألا تكون المسكينة قد فقدتها؟ يجب أن تحصلوا على ورقة من الطبيب في حال فقدتها تثبت أن ذلك حصل رغما عنها، ورددت احداهن يا لحظها من سيتزوجها، ثم أردفت: وان تزوجها فسيشك فيها طوال حياته، يا للخسارة!.

فكرت أن الحياة لم تكن عادلة معها وأنه ينبغي على الموت أن يكون رحيما بها لكنها بقيت تتشبث بأنفاسها وحياتها لا طمعا فيها بل خوفا من الموت لم تكن رغم كل شيء تثق به، لا تثق بأن صلواتها وتطهرها وكل محاولاتها يمكن لها أن تجعله أخف أو أرحم، لقد حضر في وجدانها طوال حياتها العذاب قبل الرحمة والجبروت قبل العدالة والصلوات المفقودة والمنسية قبل المؤداة والشتائم والغيبة التي تأكل أعمالها كصرامة في حقل ليس به زرع

قبل الكلمات والافعال الطيبة، شعرت أنها متهمة ومخطئة وثقيلة الذنوب والخطايا ومهما يكن فقد كانت نفسها تشعر أمام كل شيء طيب تفعله أنه لا فائدة وأنها ستكون مع المخطئين العرايا ينتظرون الجحيم، استيقظت في قلبها كل الصور البشعة التي كانت تصنعها في خيالها في حصص المواد الدينية وفي دراستها الجامعية لعذاب القبر، وأرهق روحها كيف ينبغي أن تتابع عذاباتها الأبدية دون أن تنقطع وهل كان هناك من طريقة لتتفادى هذا المصير وهذه الحياة من أساسها، وكم عذبها هذا الشعور من التعاسة الممتدة والتي من طولها لا تعرف بالضبط متى ابتدأت ويشق على نفسها أنها لا تتصور لها نهاية.

رشح جسدها ولسعتها قطرات الرشح في جلدها الذي كان مشققا وواهنا، وشعرت أنها في طور جديد هو الا تتوجع بعد، تركت لكل شيء فرصته أن يكمل زحف الموت إليها، فهي وإن لم تكن مستعدة كما أي انسان يساق بيد قوية إلى مكان ليس لديه فكرة عنه لكن عينية معصوبة وقدمية مقيدة وفمه مكمم فإنه سيمشي لا يحمله على كل خطوة إلا فكرة واحدة أنه سيموت وأنها لحظة ومهما كانت موجعة فسينتهي بعدها كل شيء، لكنها كانت ضعيفة جدا وواهنة لا تكاد تفرق بين ما هو حقيقي مما هو من نسج خيالها وتوهمها، فقد صارت هي كلها في هذه اللحظة فكرة تدور بعيدا عن جسدها، فكرة تشبه الخلاص.

شدّ ألم عنيف أطرافها وشعرت به يسري في كل جسدها متصاعدا إلى رأسها فعادت من تلك الفكرة التي تحوم بها في الأعلى إلى الأرض من جديد وهي تريد ان تبكي، كانت مرتعبة من أن يحدث كل هذا وأن تواجه هذه اللحظة بالذات وحدها، ذلك أنها عاشت حياتها وهي تختبئ من كل خوف أو عجز أو خطأ في أكناف الآخرين، وشعرت أن العالم بعيد بالكاد تتذكره وأن الحياة شيء ما تخيلته بشكل خاطئ، أو أنه كابوس في منام لم يوقظها منه أحد، كانت تمضي عليها الدقائق كما لو كانت سجانين ومعذبين هلاميين لا تراهم لكنها تشعر بهم وتشعر أنهم يصيرون أضخم وأكبر فيسدون أذنيها من اللاصوت، كانت تشعر كما لو أنها تغرق ترى كل شيء حولها يرشح بالماء والعرق والدموع والصلوات الأخيرة المقطوعة الرجاء والبالغة اليأس والألم، كانت تثقل وتشعر أن شيئا ما يضغطها على الأرض ويدوس عليها عدة مرات، لم تعد تحمل أي شعور سوى الشرود كما لو كانت تريد أن تنخلع من جسدها وتهرب بأسرع ما يمكنها، وبينما هي في هذه الحالة مرتمية على الأرض يقابل رأسها الباب فتحت عينيها للحظة فرأت الباب مفتوحا وأغلقتهما للأبد.

الفصل الأخير

في أحد الصباحات المألوفة والمكررة والمعتادة، تأخرت نادية عن تجهير الإفطار لوالديها واستغربت أمها أنها لم تسمع لها صوتا منذ البارحة، دخلت الغرفة فوجدتها مستلقية على الأرض، وقد لفظت أنفاسها الأخيرة.